مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (5)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (5) 2015

محَاورُ قَصيدةِ المَدِيحِ النَّبويِّ وَمضَامِينهَا في مَملَكةِ غِرْنَاطة(635 .897هـ)

الدكتور نبيل سالم سلمان*

(تاريخ الإيداع 28 / 6 / 2015. قبل للنشر في 22 / 9 / 2015)

□ ملخّص □

إنَّ قراءةً دقيقةً لديوانِ الشِّعرِ في مملكةِ غرناطة تُطلعنا على مدَى اتِّساعِ مَسَاحةِ قصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ في هذِهِ المرحلةِ مِنْ حياةِ الدولةِ العربية الإسلامية المتأخرةِ في الأنْدَلُس.

وإنَّه لَمِنَ المؤكَّدِ أنَّ الحُبَّ الصَّادقَ الخَالصَ المتزَامِي الأطْرَاف للنَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ، وَبُعدَ المَزَارِ عن الأمكِنةِ المقدَّسةِ، وَالحنين وَالشَّوقَ الجارفِين لهذِهِ الأمكنةِ المقدَّسةِ، وَكثرةَ الذُّنُوبِ والإقرَارَ بِهَا، وَمُعَاتبةَ النَّفسِ وَمُعَاقبَتِهَا، وَاستكنَارَ الشُّكْرِ ورَومَ الشَّفَاعةِ، فضلاً عن الوَاقعِ السِّياسيِّ الَّذي بدأتْ معه حالُ الأندلسِ تَنْقَلِبُ نحوَ الزَّوالِ ؛ كنتيجةٍ حتميَّةٍ لسياسةِ حكَّامها وتعاونِ أعدائها، كلُّ هذا وغيره، أسهمَ في اتِّسَاعِ رُقْعَةِ قصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ، الَّتي جاءت، بِمَجْمُوعِهَا، لِتُشِيدَ بالرَّسُولِ ﷺ ؛ باعتبَارِهِ سيِّدَ الخَلقِ، وأفضل البشرِ، كما أنَّ أصحَابهُ لا يقلون شأناً عندَ شعرَاءِ غرناطة عنه، فهمُ الأنْصَارُ وَالأصْحَابُ المُدَافعونَ عنِه وَعن الرِّسَالةِ التي جاء بها.

فجاءتْ قصيدةُ المَدِيح النَّبويِّ الغرناطيَّةُ متعدَّدةَ الأغرَاضِ وَالموَاضِيعِ، على غرَارِ قصائدِ الشِّعرِ العربيِّ القديمِ، خاصَّة أنَّها تأثَّرتْ، بشكلٍ واضحٍ وجليٍّ، بنتاجِ شعرَاءِ المَدِيحِ النَّبويِّ، وَكانتْ قصائدُ المُعَارضةِ سمةَ هذا الغرَضِ الشِّعريِّ فِي هذا العَصْرِ.

وَكُلُّ هذا تَرَافقَ لدى الشَّاعرِ الغرناطيِّ مع يقينٍ مُطلقٍ بِالأملِ الذي يمثِّلُهُ المُصْطَفى ﷺ وَصحابته فِي شدِّ هِمَمِ المسلمين في الأندلسِ، وَالاستِجَابةِ وَالشَّفَاعةِ وَالنَّصرِ وَالفوزِ.

الكلماتُ المفتاحية: محَاور، مديح نبويٌّ، الشَّوق، السِّيرة، الرَّكب، الذَّنب، الأمكنة المقدَّسة.

* مدرّس اللغة العربية وآدابها في كلية التربية – قسم تربية الطفل – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.ومدرس الأدب الأندلسي بكلية الآداب في الحسكة في جامعة الفرات.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (5)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (5) 2015

Axis and contents of Prophetical Commendatory Poems at Granada Kingdom (E 897- 635)

Dr. **Nabeel Salem Salman***

(Received 28 / 6 / 2015. Accepted 22 / 9 / 2015)

□ ABSTRACT □

A attended reading of poem collection in Granada Kingdom, will show us, the extension area of Prophetical Commendatory Poems, at that stage from lately life of Islamic State in Andalusia.

Its sure that, the sincere, faithful, extensive love of the prophet Mohammad **(god pray on him)** , the distant from holy places, longing and burning desire to this places, recognizing the more misdeeds, self admonishing and punishing, more thanking and pardoning, and also the political situation in which, Andalusia turned over to dropping ,because of its governors policy and enemies wise, all of these and others, contributed in extending of Prophetical Commendatory Poems area, all of which glorifying the prophet Mohammad**(god pray on him)**, as he is the creation Sirs, the best human, a luminance being, as well his concomitants have had the place in Granada poetry, as they were supporting and sustaining the prophet and the message.

Granada's Prophetical Commendatory Poems came, with many objectives and subjects, in the same manner as the verses of classic Arabian Poetry, which were clearly affected by Prophetical Commendatory Poets, and contrary poems were the attribute of the poetical objectives of that period.

All of these were associated for Granadian poets with full trust in hopes, which represented by Chosen Mohammad**(god pray on him)** and his companions, in encouraging Muslims of Andalusia , response, pardoning, victory and wins.

Keywords : Axis, Prophetical Commendatory, longing, biography, misdeeds, holy places.

***Assistant Professor of the Arabic Language, Faculty of Education, University of Tishreen, Lattakia; & Instructor of al-Andaluci Literature, Faculty of Arts and Humanities, Hassaka, Syria.**

مقدَّمة:

تَضمُّ قصيدةُ المَدِيحِ النَّبويِّ لدى الشُّعرَاءِ الغرناطيِّين بعضَ العَنَاصرِ الَّتِي تتمثَّل في: مقدَّمةٌ – قَد تَطُولُ أو تَقصرُ – فَوصفٌ للرِّحلةِ، فَرصدٌ لصفاتِ النَّبِيِّﷺ وَمعجزاتِهِ وسيرةِ دعوتِهِ، ثُمَّ طلبُ الشَّفاعةِ، فَالصَّلاةُ وَالتَّسليمُ علَيهِ، وَقَدْ تُذيَّلُ القصيدةُ ببعضِ الأبْيَاتِ الَّتِي تَتَناولُ هذا الأمِيرَ أو ذَاكَ السُّلطانَ بِالإشادةِ وَالمدحِ .

عَلَى أنَّني أسَارِعُ فأقرِّرُ أنَّه ليس من الضَّروري أنْ تنطوي كلُّ قصيدةٍ عَلَى العنَاصرِ السَّابقةِ مُجتمعةً، فَقَدْ يَقْتصرُ الشَّاعرُ عَلَى بعضٍ دونَ الآخر، ولكنَّ الثَّابتَ لدى الشُّعراء الغرناطيِّين، ومن قبلهم البوصيري، وغيره، أنَّ أيَّةَ مَدْحَةٍ نبويَّةٍ لا تَخْلُو من تنَاولِ مُعجزَاتِ الرَّسولِﷺ وَمناقبِه وَالتَّشفُّعِ به وَالصَّلاةِ عليه .

أهمِّيةُ البَحْثِ وَأهدَافُهُ:

يُحاولُ البحثُ الوقوفَ عَلَى اتِّجَاهَاتِ وَمَحَاورِ قصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ في ظلِّ مملكة غرناطة، وذلك بغيةَ قراءة كلِّ محورٍ قراءةً نصِّيَّةً تحليليَّةً تظهرُ مظاهرَ إبداع الشَّاعرِ الغرناطيِّ من جهة، ومكامنَ محاكاةِ أسلافه من جهةٍ أخرى، فضلاً عن بيان السِّماتِ الفنِّيَّةِ للقصيدةِ النَّبويَّةِ الغرناطيَّةِ.

وَيَسْتَمدُّ البحثُ أهمِّيته مِنْ خلالِ إبرَازِ عَنَاصرِ تَشْكِيلِ القَصِيدةِ المدحيَّةِ الغرناطيَّة، وَمَا تروم إليه، في ظلِّ عهدٍ بَدَأتْ معه مَرحلةُ بِدَايةِ النِّهايةِ لدولةِ العرب الإسلاميّة في الغربِ، بل تجَاوزتْ خطوَاتِ الزَّوالِ الأولى.

مَنْهَجيةُ البحثِ:

يَتَّخِذُ البحثُ مِنَ المَنْهجِ الوَصْفي، بصفةٍ أساسيَّةٍ، طريقاً للوصُولِ إلى رؤى المضامينِ النَّصِّيَّةِ، من خلالِ فرزِ كلِّ محورٍ من محاورِ القَصيدةِ المدحيَّةِ على حدا، ثمَّ الاتكاء على المنهجِ التَّحليليِّ النَّصِّيِّ المُتكاملِ، الَّذي يتَّخذُ القصيدةَ وِحدةً مُتكاملةً، بهدفِ التَّعَاملِ مع المُنْتجِ الشِّعريِّ بشكلٍ موضوعيٍّ بعيدٍ عن التَّأثُّر أو التَّقيُّد بفكرٍ مُحددٍ .

محَاورُ قَصيدةِ المَدِيحِ النَّبويِّ وَمضَامِينهَا في مَملَكةِ غِرْنَاطة

نَظراً لأنَّ المَضَامينَ العامَّة سمةٌ مشتركةٌ بين معظمِ الشُّعراءِ، وتُكْسبُ المدائحَ خصوصيتها بينَ أغراضِ الشِّعرِ الأخرى، سوف نقفُ عندها بالتَّحديدِ.

أ–المقدَّمة:

تُعدُّ المقدَّمةُ أوَّلَ عُنصرٍ من عَناصرِ تَشْكِيلِ قَصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ مُصَافحةً للقارئ، وَتَّتسمُ هذه المقدَّمةُ بطَابعٍ خَاصٍّ مختلفٍ عمَّا نعرفُه مِنْ مقدَّماتِ قصَائدِ المَدِيحِ الأخرى..

وأوَّلُ تلك المضَامين يتَّصلُ بالإفصاحِ عمّا يكابدُه الشَّاعرُ من شوقٍ جارفٍ وَوَجْدٍ عارفٍ نحوَ الرَّسُول ﷺ وَالأمكنةِ المقدَّسةِ، فَتَنْهضُ المُقدَّمةُ عَلَى غرَامٍ عفيفٍ استبدَّ بالشَّاعرِ، فأرَّقَ جفنَ العينِ، أو في صورةِ نسيبٍ رمزيٍّ، أو تصريحٍ بالتَّشوُّق إلى الحجازِ وسكَّانِهَا .

وَكثيراً ما يكونُ التَّغزُّلُ أو النَّسيبُ خاضعاً لِشروطِ النُّقَّادِ في هذا المجالِ، فقالَ الحمويُّ: (إنَّ الغزَلَ الَّذِي يُصَدَّرُ به المَدِيح يَتَعَيَّنُ عَلَى النَّاظِمِ أَنْ يَحْتَشِمَ فِيهِ وَيَتَأَدَّبَ، ويَتَضَاءَلَ وَيَتَشَبَّبَ، مُطْرِباً بِذِكْرِ سَلعٍ وَرَامَةَ، وَسَفَحِ العَقِيقِ، وَالعُذَيْبِ، والغُوَيرِ، ولَعْلَعٍ، وأَكْنَافِ حَاجِرٍ)[1] ؛ لِذلك جاءتْ هذه المعَالمُ كثيرةً في مقدَّماتِ مدائحِهم وميلادياتهم [2] .

([1]) **ابن حجَّة الحمويُّ:خزانة الأدب وغاية الأرب:تحقيق كوكب دياب،(بيروت،دارصادر، ط2، 2002م)40/1.**

وَقَدْ يكُونُ التَّصديرُ بِالنَّسيبِ لهدفٍ آخر غيرِ الرَّمزِ، وَهُوَ شدُّ النُّفُوسِ بتقديمِ مَا تَهفو إليه وَتطربُ لسمَاعِه، أو ما عبَّر عنه ابنُ الخطيب [3] في تَقديمِه لقصيدةِ المُنتشاقُريِّ [4]، حيثُ قالَ:(وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ الْجِهَةَ النَّبويَّةَ، مُصَدِّراً بِالنَّسِيبِ لِبَسْطِ الخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ)[5].

ثمَّة استطرَادٌ تَفْرضُهُ طَبيعةُ المعَالجةِ، يتمثَّلُ في أنَّ تَصْديرَ بعضِ القصَائدِ النَّبويَّةِ بِالغزلِ العفيفِ، يَعُودُ إلى تأثيرٍ صُوفيٍّ، وَهذا ما قرَّرهُ ابنُ عربي بقوله: (وَجُعلت العِبَارةُ عن ذلكِ بلسانِ الغَزَلِ أو التَّشبيبِ، لِتعشقَ النُّفوسُ بهذه العباراتِ، فَتتوفرُ الدَّواعي عَلَى الإصْغَاءِ إليها، وَهُو لسانُ كلِّ أديبٍ روحانيٍّ لطيفٍ)[6].

وَهِي مقدِّماتٌ قَدْ تطولُ أوتقصرُ، باختلافِ الشُّعرَاءِ والمناسباتِ، فقد كان ابنُ زُمرك [7] مِمَّن يفضِّلون إطالتها، وَمنَ الأمثلةِ عليها همزيتُهُ الَّتِي يقولُ مطلعُهَا [8]:

زَارَ الخَيَالُ بِأَيْمنِ الزَّوْرَاءِ فَجَلاَ سَنَاهُ غَيَاهبَ الظَّلْمَاءِ

عَلَى أنَّ الغَالبَ عَلَى مقدَّماتِ المَدِيح النَّبويِّ هُوَ شَكوى الوَجدِ ولوعَةِ الشَّوقِ، وَبيَانِ آثارِهِمَا عَلَى الصَّبِّ المشوِّقِ، كمَا يقولُ المنتشاقريُّ [9]:

لَمَّا تَنَاهَى الصَّبُّ في تَشْوِيقِهِ دُرَرُ الدُّمُوعِ اعْتَاضَها بِعَقِيقِهِ
مُتَلَهِّفٌ وَفُؤَادُهُ مُتَلَهِّبٌ كَيْفَ البَقَاءُ مَعَ احتدامِ حَرِيقِهِ
مُتَمَوِّجٌ بَحْرُ الدُّمُوعِ بِنَجْدِهِ أَنَّى خَلاَصٌ يُرْتَجَى لِغَرِيقِهِ

أو كقولِ أبي عبد الله بن الصَّائغِ[10] في مقدَّمةٍ وجديَّةٍ طَافحةٍ بالعَوَاطفِ وَالأشْوَاقِ[11]:

بُعْدُ المَزَارِ وَلَوْعَةُ الأَشْوَاقِ حَكَمَا بِفَيْضِ مَدَامِعِ الآمَاقِ

([2]) يُنظر أمثلة عَلَى ذلك في: ابن الخطيب، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق فاغية السَّعدية، (مطبعة النَّجاح الجديدة، ط2، الدَّار البيضاء، 1982م) 3/301- 313- 320 .

([3]) محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله الخطيب سعيد بن أحمد السَّلماني اللَّوشي المعروف بابن الخطيب، نزيل فاس، المقتول بها سنة 776هـ، يُنظر: ابن الأحمر، نثير فرائد الجُمَان في نظم شعراء الزَّمان، تحقيق د.محمَّد رضوان الدَّاية (دارالثَّقافة، بيروت 1967م) ص 242. وترجم ابن الخطيب لنفسه وقال:...قرطبيُّ الأصل، ثم طليطلية، ثم لوشية، ثم غرناطة، يُكنَّى أبا عبد الله، ويلقَّب من الألقاب الشَّرقية بلسان الدِّين، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق:محمَّد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة، 1973م) 4/438. وله ديوان شعر حقَّقه الدكتور محمَّد مفتاح (دارالثقافة، بيروت، 1989م)

([4]) يوسف بن موسى بن سليمان بن فتح بن أحمد الجذاميُّ المنتشاقريِّ، من أهل رندة، يُكنَّى أبا الحجَّاج، ت751هـ، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 4/376، والكتيبةُ الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثَّامنة، تحقيق : د. إحسان عباس (دار الثَّقافة، بيروت،1963م)، ص119.

([5]) ابن الخطيب: الإحاطة 4/ 381 .

([6]) محي الدِّين بن عربي: ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق(المطبعة الأنسية،بيروت، 1312هـ)ص5.

([7]) محمَّد بن يوسف بن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن يوسف بن محمَّد الصَّريحي، المعروف بابن زُمرك، ت795هـ، مدحه ابن الخطيب في الإحاطة 2/300 وذمَّه في الكتيبة، ص 282 . وله ديوان شعر حقَّقه د.محمَّد توفيق النَّيفر (دار المغرب الإسلامي، ط1، المغرب 1997م).

([8]) المقَّري شهاب الدين أحمد، نفحُ الطِّيب في غصن الأندلس الرَّطيب، تحقيق د.إحسان عباس (دار صادر، بيروت 2004 م) 7/179، والمقَّري، أزهارُ الرِّياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق : مصطفى السَّقا وإبراهيم الإبياري وعبد الشَّلبي(صندوق إحياء التُّراث، الرِّباط،1399هـ)2/47،وابن زُمرك ديوانه،ص14.

([9]) ابن الخطيب: الإحاطة 4/ 381 .

([10]) محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن لبٍّ الأميِّ، يُكنَّى أبا عبد الله، وَيُعرف بابن الصَّايغ، من أهل ألمريَّة، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 2/433 .

([11]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 88 .

وَخُفُوقُ نَجْدِيِّ النَّسِيمِ إِذَا سَرَى ... أَذْكى لَهِيبَ فُؤَادِيَ الخَفَّاقِ

أَمُعَلِّلِي أَنَّ التَّوَاصُلَ فِي غَدٍ ... مَنْ ذَا الَّذِي لِغَدٍ، فَدَيْتُكَ، بَاقِ

ثُمَّ يَنْتقلُ الشَّاعرُ مِنْ هذا الاستهلالِ المُعتَادِ إلى موضوعَاتٍ مُختلفةٍ، منهَا وَصفُ الرِّكبانِ ومَا أثارُوه بسفرِهم إلى البقَاعِ المقدَّسةِ من لوَاعجِ الشَّوقِ في نفسه، وَمَا حرَّكوهُ مِنْ حَنينِه إلى مرافقتِهم، وَمَا أقعدَهُ عن تلك الغايةِ من عقبَاتٍ، كإعَاقةِ الذُّنُوبِ، وَاتبَاعِ الهَوى، وَفتُورِ الهمَّةِ، وُبُعدِ الشَّقة، وَمَا إلى ذلك . فعبدُ الحقِّ بن عطيَّة [12] يقولُ في هذا الأمْرِ[13]:

أُحَدِّثُ نَفْسِي أَنْ أَرَى الرَّكْبَ سَايِرا ... وَذَنْبِي يُقْصِينِي بِأَقْصَى المَغَارِبِ

فَلاَ فُزْتُ مِنْ نَيلِ الأَمَانِي بِطَايِلٍ ... ولاَ قُمْتُ مِنْ حَقِّ الحَبِيْبِ بِوَاجِبِ

وَلَكِنْ ذُنُوبٍ أَثْقَلَتْنِي فَهَا أَنَا ... مِنَ الوَجْدِ قَدْ ضَاعَتْ عَلَيَّ مَذَاهِبِ

وَقاسمٌ العمريُّ المُرِّيُّ [14]، أعَادَ السَّببَ في قعودِهِ عن رحلةِ الحجِّ إلى ذنُوبهِ وأوزارِهِ أيضاً، فَقَالَ[15]:

فَقُلْ غَرِيبٌ ثَوَى بِقَرْبٍ ... فِي بَحْرِ أَوْزَارِهِ يَعُوْمُ

إِنْ أَعْمَلَ العَزْمَ لارْتِحَالٍ ... أَقْعَدَهُ ذَنْبُهُ العَظِيْمُ

وَيَقُولُ أبو القاسمِ مُحَمَّدٌ بن يحيى البرجيِّ [16] منْ قَصيدةٍ نبويَّةٍ أنشدَهَا لأبي الحجَّاجِ يوسف، سنة 701هـ، في حضرةِ ابنِ الخطيبِ، مُصدِّراً إيَّاها بمقدَّمةٍ غزليَّةٍ[17]:

أَصْغَى إِلى الوَجْدِ لَمَّا جَدَّ عَاتِبُهُ ... صَبٌّ لَهُ شُغْلٌ عَمَّنْ يُعَاتِبُهُ

لَمْ يُغْطِ للصَّبرِ مِنْ بَعْدِ الفرَاقِ يداً ... فَضَلَّ مَنْ ظَلَّ إرشَادَاً يُخَاطِبُهُ

لولا النَّوَى لَمْ يَبِتْ حيرَانَ مُكْتَئباً ... يُغالبُ الوَجدَ كَتماً وَهُوَ غَالِبُهُ

يستودعُ اللَّيلَ أسرَارَ الغَرَامِ وَمَا ... تُمْلِيهِ أَشْجَانُهُ فَالدَّمْعُ كَاتِبُهُ

وَمِثْلُ هذِه المقدَّماتِ الغزليَّةِ يرمي الشُّعرَاءُ مِنْ خلفِهَا النُّزُوعَ إلى حبِّ النَّبِيِّ، فعبدُ الكريمِ القيسيُّ [18] يتَّخذُ من حبِّ النَّبِيِّ مقدَّمةً لمدحةٍ نبويَّةٍ، يقولُ فيها[19]:

وِصَالُكَ مَقْصُودِي فَهَلْ أنتَ وَاصِلُ؟ ... فَليسَ بِقَلْبِي غَيرُ حُبِّكَ حَاصِلُ

([12]) عبد الحقّ بن محمّد بن عطيَّة المحاربيّ، وصفه ابن الخطيب بالشّيخ الرَّئيس والصَّاحب، يُنظر: ابن الخطيب، الكتيبة، ص 269 . وابن الأحمر، نثير الجمان في شعر من نظمني وإيَّاه الزَّمان–كتاب أعلام المغرب والأندلس في القرن الثَّامن– تحقيق د.محمّد رضوان الدَّاية(مؤسسة الرِّسالة بيروت، ط1، 1976م) ص 137.

([13]) ابن الخطيب: الإحاطة 3/ 561، ويُنظر في المعنى نفسه قصيدة لابن زُمرك في:المَقَّري، الأزهار54/2.

([14]) قاسم بن محمّد بن الجدّ العمريّ، يُكنَّى أبا القاسم، والمعروف بالورسيدي، من أهل ألمريَّة، اشتغل في بلده محاسباً، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 4/ 265–267 .

([15]) ابن الخطيب: الإحاطة 4/ 267 .

([16]) محمّد بن يحيى بن محمّد بن يحيى بن إبراهيم الغسّانيّ البرجيّ، يُكنَّى أبا القاسم، من أهل غرناطة، كان أديباً وشاعراً، رحل إلى المغرب وكتبَ للسلطان أبي عنان المرينيّ، ت678هـ يُنظر:ابن الخطيب،الإحاطة 293/2. والكتيبة، ص 250، وابن خلدون:العبر وديوان المبتدأ والخبر،أو تاريخ ابن خلدون" (مطبعة بولاق، القاهرة،1284هـ) 452/7.

([17]) ابن الخطيب الإحاطة2/295–296،ونفاضة الجراب،383/3،والقصيدة كاملة عند:المَقَّري،النَّفح 70/6.

([18]) محمّد بن عبد الكريم بن محمّد بن عبد الكريم القيسي، يُكنَّى أبا عبد الله، يُنظر: محمد ابن شريفة، البسطي أخر شعراء الأندلس، (دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1985م) ص 16–17، وله ديوان شعر، حقّقه جمعة الشّيخة ومحمّد الهادي الطَّرابلسي (بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1988م) .

([19]) عبد الكريم القيسي: ديوانه ص 32–33.

وَبِي أنَّةٌ مِنْ أجلِ بُعدِكَ قَدْ بَدَتْ تَكَادُ لَهَا مِنِّي تُقَدُّ المَفَاصِلُ
وَلو جَادَ لِي دَهْرِي بِقُرْبِكَ سَاعـةً لَنلتُ مِنَ الدُّنيا الَّذِي أنَا آملُ

ويُعدُّ أبو الحسن الصَّرصريُّ{ت656هـ} أوَّلَ شَاعرٍ صوفيٍّ عبَّرَ عن الحبِّ المُحَمَّدي بنفسِ المُصطلحاتِ والألفاظِ الَّتِي عبَّرَ بِهَا عن الحبِّ الإلهيِّ، وَيعبِّرُ ابنُ الخطيبِ عن هذهِ الفكرةِ بقولِهِ[20]:

وَمَا هَاجَنِي بِالغَوْرِ قَدٌّ مُرَنَّحٌ وَلا شَاقَنِي مِنْ وَحْشِ "وَجْرَةَ" رِيمُهُ
وَلا سَهِرَتْ عَيْنِي لِبَرْقِ "ثَنِيَّةٍ" مِنَ الثَّغْرِ يَبْدُو مُوْهِناً فَيَشِيمُهُ
بَرَانِي شَوْقٌ لِلنَّبيِّ "مُحَمَّد" يَسُومُ فُؤَادِي بَرْحُهُ مَا يَسُومُهُ

لقدْ كانَ الشَّوقُ إلى زِيَارةِ الرَّسُولِ ﷺ سِمةً عامَّةً في مُعظمِ المَدَائحِ، وَكانَ التَّعلُّلُ بِحَاجزِ الذُّنوبِ وَإعاقتِهَا عنْ بلوغِ الأربِ سبباً –غالباً– منِ أسبَابِ القعُودِ عن ذلك، لا نجدُهُ في شعرِ من حُرِمَ الزِّيارةِ فحسب، وَلَكنْ في شعرِ مَنْ تُعَاودُهُ أشوَاقُ العَودةِ إلى الأمكنةِ المقدَّسةِ، وَتحفِّزُهُ عَلَى ذلك الذِّكرياتُ، وَمِنْ هؤلاء إبراهيم ابنُ الحَاجِ النُّميريّ [21] الَّذِي قالَ [22]:

أَأُمَّ القُرَى هَلْ لِبَذْلِ الْقِرَى سَبِيلٌ فَمَا غِبْتُ عَنْكِ اخْتِيَارا

وَلَكِنْ ذُنُوبِي أَطَلْنَ انْتِزَاحِي وَصَيَّرْنَ أَيَّامَ أُنْسِي قِصَارَا

وَقدْ تَنْهضُ المقدَّمةُ عَلَى الحَنينِ وَالشَّوقِ إلى الأمْكِنةِ الحجازيَّةِ، وغيرِهَا من البقَاعِ المقدَّسةِ، فيكثرُ ورودُ أسماءِ هذه الأمكِنةِ وتلك البقَاعِ، بين تَضَاعيفِ هذه المقدَّمات، وَقَد بَدَا هذا الحنينُ حادّاً، والشَّوقُ حَارقاً، كَمَا أثارَ هذا الهيامُ النَّفسَ المتشوِّقةَ، وَاختَرَقَ شغَافَ القلبِ، وأضفَى عَلَى الحَالِ وَجْداً مُتَرَامِي الأطْرَافِ.

وَظلَّتْ هذه الأمكنةُ وَتلك البقَاعُ، الَّتِي تتردَّدُ هنا وهناك، دليلَ إجْلالٍ لأرضٍ شَهدَتْ مُوْكِبَ النُّبوةِ وَركبَ الحَضَارةِ الإسلاميَّةِ، وأضْحَتْ مَهْداً لخَاتمِ الرُّسلِ، وَظلَّتْ أصداءُ الشّوقِ تفجِّرُ في نفوسِ الشُّعراءِ الألمَ واللَّوعةَ، كلَّما لاحَ برقٌ، أو هبَّ نسيمٌ، أو زمَّت رِحَالُ رَكْبٍ حِجَازيٍّ، يقولُ ابنُ الصَّائغِ[23]:

وَخفُوقُ نَجْدِيِّ النَّسِيمِ إذا سَرَى أذْكَى لَهِيبَ فُؤَادِيَ الخَفَّاقِ
أَمُعَلِلِي أنَّ التَّوَاصُلَ فِي غَدٍ مَنْ ذا الَّذِي بِغَدٍ فَدَيتُكَ بَاقِ

([20]) ابن الخطيب: ديوانه، ص 549 .

([21]) إبراهيم بن عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النُّميريّ، من أهل غرناطة، يُكنَّى أبا إسحاق ويُعرف بابن الحاج، ت768هـ، يُنظر ابن الخطيب: الإحاطة 342/1، وابن الأحمر، نثير فرائد الجمان، ص 313،وذكر أنَّه أدركه، وله ديوان شعر، حقَّقه د.بنعيسى بويوزان (دار الآداب والعلوم الإنسانية، تازة، الرِّباط، د.ت).

([22]) أبو العباس أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس (الرِّباط، مطبعة دار المنصور، 1973م)1/ 93 .

([23]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 88 .

وَشوقُ مالكٍ بنِ المُرحَّل[24] نارٌ على علمٍ، يقولُ [25]:

شَوْقٌ كَمَا رُفِعَتْ نَارٌ عَلَى عَلَمِ — تَشِبُّ بِينَ فُرُوعِ الضَّالِ وَالسَّلَمِ

أَلِفَهُ بِضلُوعي وَهُوَ يَحْرِقُها — حتَّى بَرَانِي بَرْياً لَيسَ بِالقَلَمِ

مَنْ يَشْتَرِيني بِالبُشْـرَى وَيَمْلِكُنـي — عَبْداً إذا نَظَرَتْ عَينِي إلى الحَـرِمِ

وَبِما أنَّ الأمكِنةَ الحجازيَّةَ شَهدتْ مَوْلِدَ الرَّسُول ﷺ، ونشأتَه، وَاحتوتْ مَرَاحلَ حيَاتِهِ، في مكَّةَ المُكرَّمةِ والمدينةِ المُنوَّرةِ، فإنَّها أخذتْ حِيزاً فَسِيحاً في قصَائدِ المَدِيح النَّبَويِّ، وكانتْ تمثِّلُ الشُّهودَ الباقيةَ عَلَى تلك المرَاحلِ النَّاطقةَ بلسانِ حالها،عن فترةٍ من أهمِّ فتراتِ التَّاريخِ الإسلاميِّ، وَللمُنْتشاقريِّ في ذلك قصيدةٌ منها[26]:

بِطِيْبَةَ هَلْ أَرْضَى وَتَبْدُو سَمَاؤُهَا — وإنْ تكُ أَرْضاً فالحَبِيبُ سَمَاءُ

بِسِلْعٍ فَسَلْ عَمَّا أُقَاسي مِنَ الهَوَى — وَسَلْ بَفْبَاءٍ إذْ يَلُوحُ قُباءُ

وَفِي عَالِجٍ مِنِّي بِقَلْبِيَ لاَعِجٌ — فَهَلْ لِيْ عِلاَجٌ عِنْدَهُ وَشِفَاءُ

وَمَعَالمُ الطَّريقِ إلى الحِجَازِ تبعثُ الشَّوقَ في النُّفوسِ، وتُثيرُ كوامنهَا، فكيفَ بالأمكنةِ الَّتِي عاش فيها الرَّسُولُ ﷺ وَصحبُه، وشهدتْ تلك المرحلةَ المهمَّةَ من البعثةِ النَّبويَّةِ ؟! فهذا الشُّعورُ تجَاه هذه الأمكنةِ ينعكسُ جليّاً في عِبَاراتِ التَّكْبيرِ والتَّهليلِ عندَ ذكرِهَا، وفي ألفاظِ اللَّثُّمِ والتَّقْبِيلِ والغِبْطَةِ الَّتِي ترتبطُ بهَا، وَقَد أحسنَ أبو زيدٍ البلويُّ [27] استخدامَهَا أيما إحسانٍ، في رائيته الَّتِي منها قولُه[28]:

اللهُ أَكْبَرُ حَبَّذَا إِكْبَارُهُ — هَذَا الشَّفِيعُ لَنَا وَهَذِي دَارُهُ

لاَحَتْ مَعَالِمُ يَثْرِبٍ وَرُبُوعُهَا — مَثْوَى الرَّسُولِ وَدَارُهُ وَقَرَارُهُ

هَذَا النَّخِيلُ وَطيبَةٌ وَمُحَمَّدٌ — خَيْرُ الْوَرَى طُرّاً وَهَا أَنَا جَارُهُ

فَمِنْ خِلالِ التَّكبيرِ وَالتِّكرارِ لاسمِ الإشارةِ عَكسَ الشَّاعرُ حالةَ الانْبِهَارِ الَّتِي يحسُّ بها المؤمنُ في لحظاتِ مواجهته الأوَّلى للأمكنةِ المقدَّسةِ، حيثُ يربطُ في ذلك بين الصُّورةِ المُشَاهَدَةِ وكلِّ ما ارتسمَ في ذهنِهِ من صورٍ، عَبْرَ ما تعلَّمَ عَنْ هذه المشَاهدِ، منذُ نعومةِ أظافرِه؛ ولذا، فلا غرو في أنْ يكونَ اللِّقاءُ أعمقَ من مجرَّدِ المصَافحةِ والإعجابِ الَّذِي يحسُّ به الإنسانُ، وَهُوَ يُشاهدُ منظراً طبيعياً جميلاً، إنَّه تشخيصٌ لتلك الأمكنةِ في صورةِ الأحبَّةِ، الَّذِين يستقبلهم بالعِنَاقِ واللَّثمِ وَالبهجةِ المُفْرِطةِ، يقولُ فرجُ بن لُبٍّ التَّغلبيِّ [29] في هذا المعنى[30]:

([24]) مالك بن عبد الرَّحمن بن عليّ بن عبد الرَّحمن بن الفرج بن أزرق بن سعد بن سالم بن فرج، مالقيٌّ سكن سبتة، ثم فاس، ثمَّ سبتة، يُكنَّى أبا الحكم وأبا مجد، ويُعرف بابن المُرحَّل، تواليفه كثيرة منها نبويات عَلَى حروف المعجم، ت699هـ، يُنظر: ابن الخطيب الإحاطة 303/3.

([25]) ابن الخطيب: الإحاطة 314/3 .

([26]) ابن الخطيب: الإحاطة 4/ 385.

([27]) خالد بن عيسى بن أبي خالد البلوي، من أهل قنتُورية، من حصون وادي المنصورة، يُكنَّى أبا البقاء،وهو صاحب الرِّحلة الَّتِي سماها "تاج المفرق في تحلية أهل المشرق"، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 500/1.

([28]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 135 .

([29]) فرج بن قاسم بن أحمد بن لبٍّ التغلبيّ، من أهل غرناطة، يُكنَّى أبا سعيد، من أساتذة المدرسة البصرية، ت783هـ،يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 253/4، والكتيبة ص 67،وابن الأحمر، نثير الجمان ص 186.

([30]) ابن الأحمر: نثير الجمان، ص 187 .

فَيَا فَوْزَ مَنْ فَازَ في طِيْبَةٍ بِلَثْمِ المَغَانِي جِدَاراً جِدَارا
وَأَلْصَقَ خَدًّا عَلَى تُرْبِهَا وَأَكْمَلَ حَجًّا بِهَا وَاعْتِمَارَا
حَنِيناً وَشَوْقاً إِلَى مَعْلَمٍ حَوَى شَرَفاً خَالداً لاَ يُجَارَى

أمَّا الحَديثُ عنِ الرَّكبِ الحِجَازيِّ المتَّجهِ إلى يَثْربَ، فيحدُوهُ حبٌّ عميقٌ للرَّسولِ، وشوقٌ جَارفٌ لزيارةِ قبرِه، فهؤلاء قومٌ آمنوا بالله، وصدقَ إيمانهم، وَلبُّوا دعاءَ الحقِّ حينما دعَاهم، فولُّوا وجوهَهُم شطرَ البيتِ الحرَامِ، تَحُفُهم الرَّحمةُ، وَتتغشاهم السَّكينةُ، غير مبالينَ بما يتجشَّمونَ من مِتاعبَ وَصِعابٍ، وَهَا هم، وقد زُمَّت رواحلُهُم، يغالبُهم الشّوقُ، وتَنْسَكبُ دموعُهُم شوقاً، وإقراراً بِمَا ارتكبوا من تقصيرٍ، فيعطِّرونَ أفواهَهُم بذكرِ الله، يقول ابن زُمرك[31]:

وَمِمَّا شجَانِي أنْ سرَى الرَّكبُ مَوْهِناً تُقَادُ بِهِ هوجُ الرِّيَاحِ بأرسَانِ
غَوَارِبُ فِي بَحْرِ السَّرَابِ تَخَالُهَا وَقَدْ سَبَحَتْ فِيهِ مَوَاخِرَ غُرْبَانِ
نَشَاوَى غَرَامٍ يَسْتَمِيلُ رؤُوسَهُم مِنَ النَّومِ وَالشَّوقِ المُبَرِّحِ سُكْرَانِ
أَجَابُوا نِدَاءَ البَينِ طَوْعَ غَرَامِهُم وَقَدْ تَبْلغُ الأَوْطَارُ فُرْقَةَ أوطَانِ

وَيَصِفُهم، وَقَدْ أعيَاهُم طُولُ السَّفرِ، بِمَنْ أسكرتْهم الخمرُ، وَيُوفَّقُ ابنُ زُمرك أيما توفيقٍ، عندَمَا يجعلُ شوقَهم للنَّبيِّ ﷺ دليلاً يقودُهُم، إنْ هم ضلُّوا الطَّريقَ، فَقَالَ[32]:

مُتَرَنِحِينَ عَلَى الرِّحَالِ كَأَنَّمَا عَاطِينْ مِنْ فَرْطِ الكَلالِ شَمُولا
إِنْ يَلْتَبِسْ عَلَمُ الطَّرِيْقِ عَلَيهُم جَعَلُوا التَّشوُّق لِلرَّسُولِ دَلِيلا

وإذا كانَ ابنُ زُمرك قَدِ اعتنَى بِوَصفِ الرَّكبِ الحجَازيِّ مُذْ تأهَّبَ للمسيرِ، وَرافقَه بخيالِهِ، رَاصِداً مَا ينتابُهُم من أحاسيسَ، وَمَا يعتريهم من إرهَاقٍ، فإنَّ القاضي أبا زيدٍ البلويَّ– وَقدْ زارَ الأراضي المقدَّسةَ وَعَايشَ تجربةَ الحجِّ– يُطْلِعُنا عَلَى بُعْدٍ آخرٍ من المَشَاعرِ الَّتِي تنتابُ الحَاجَّ، وَقَدْ تحقَّقَ حلمٌ، طالما رَاودَ المشوّقَ، فهَا هي ربُوعُ يثربَ وَمعالمُهَا تطلُّ من بعيدٍ، مثيرةً الشَّجى في نفُوسِ الرَّكبِ، وَهَا هي مَوَاطنُ الوحي ومنزلُه، وتلك مَوَاطِئُ خيرِ من وطئ الثَّرى، تسمو بمشَاعرِه فيضاً عَارماً من الوَجْدِ الدَّامعِ، فرَاحَ يَتقرَّى بعينيه كلَّ مكانٍ، فقالَ [33]:

هَذَا المُصَلَّى وَالبَقِيعُ وَهَا هُنَا رَبْعُ الحَبِيبِ وَهَذِهِ آثَارُهُ
هَذِي مَنَازِلُهُ المُعَظَّمَةُ الَّتِي جَبْرِيلُ رُدِّدَ بِينَهَا تِكْرَارُهُ
هَذِي مَوَاضِعُ مَهْبِطِ الوَحي الَّذِي تَشفِي الصُّدورَ من العَمى أسْطَارُهُ
هَذِي مُوَاطِئُ خَيرِ مَنْ وَطِئ الثَّرَى وَعَلا عَلَى السَّبعِ العُلا اسْتِقْرَارُهُ

([31]) ابن زُمرك، ديوانه، ص 117، والمَقَّري: النَّفح 47/5،
([32]) ابن زُمرك، ديوانه، ص 83، والمَقَّري: الأزهار 159/2
([33]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 135–136 .

ب– سيرةُ النَّبيِّ وَمُعْجِزَاتُهُ:

وَثمَّةَ محورٌ ثانٍ تحرَّكَ عليه الشُّعراءُ الغرناطيون في مَدَائحِهم النَّبويَّةِ، وَحازَ جُلَّ اهتِمَامِهم، وَأضحَى جَوهرَ قَصَائدِهم، تمثَّل في تَنَاولِ جوَانبِ الثَّرَاءِ في شخصيَّةِ النَّبيِّ ﷺ، وليداً مرضَعاً، وَمَبْعوثاً هَادياً، وَرَسُولاً مُجَاهِداً، فَكَثُراً ما تَغَنَّى الشُّعراءُ الغرناطيون بمَوْلِدِه ﷺ، وما صاحبَ مَولدَه من بشَائر، حتَّى بَدَا وكأنَّ الكونَ كلَّه يحتفلُ بهذا المَوْلِدِ، في نشوةٍ وَطَرَبٍ، فها هو عبدُ الكريم القيسيُّ، يقول مُضَمِّناً بعض هذه الأمَاراتِ نسيجَ قصيدةٍ نبويَّةٍ[34]:

لمَّا استهلَّ لَدَى الولادَةِ صَارِخاً ... صَدَعَ الظَّلامُ لِنُورِهِ فَأَنَارَا
وَاهْتَزَّتِ الدُّنيَا لَهُ فَرَحاً بِهِ ... وَاسْتَبْشَرتْ بِظُهُورِهِ اسْتِبْشَارَا
وَسَرَتْ بِأَنْفَاسِ العَبِيْرِ نَوَاسِمٌ ... مَلأتْ بِهِ الأَنْجَادَ وَالأَغْوَارَا
وَبَدتْ لِمَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ عَجَائبٌ ... مَا مِثْلُهَا أَبْدَاهُ دَهْرٌ دَارَا
فَخَبَتْ لَهُ نِيرَانُ فَارِسَ آيةً ... فَغَدَتْ وَمَا تَسطِيعُ تُوقِدُ نَارَا
وَارتَجَّ مِنْ "إِيوَانِ كِسْرَى" جَانِبٌ ... سَقَطَتْ بِهِ شُرُفاتُهُ إِنذَارَا
وَالمَاءُ أَضْحَى بِالبُحِيرةِ نَاضِباً ... مِنْ أَمَّهُ لَمْ يَحْمَدِ الإِصْدَارَا
وَالنُّورُ فَاضَ عَلَى الجِهَاتِ ضِيَاؤهُ ... فَجَلا قُصُوراً لِلعِدَى وِدِيَارَا (35)

وَيَرْصدُ ابنُ الخطيبِ في موضعٍ آخر، مَا صَاحبَ مولده من مظاهرَ كونيَّةٍ، تدلُّ عَلَى عظمةِ هذا الحدثِ وجلالِهِ، فيقولُ[36]:

وَفي لَيلَةِ المِيلادِ لاحَتْ شَوَاهِدٌ ... تَوَالَتْ بِهَا لله، فِينَا المَنَائِحُ
أَضَاءَتْ قُصُورُ "الشَّامِ" مِنْهُنَّ وَانْجَلَتْ ... مَعَالِمُ مَا ضُمَّتْ عَلَيهِ الأَبَاطِحُ
وَهُدَّ لَهَا "إيوانُ كِسْرَى" مَهَابَةً ... وَأُخْمِدَ مِنْ نِيرَانِ "فَارِسَ" لافِحُ
وَغَاضَ بِهَا "وادي السَّـماوَةِ" فَانْثَنَتْ ... تُقَلِّصُ ذَيْلَ الخصْبِ فِيــهِ المَسَارِحُ

وَتشتملُ قصيدةُ المَدِيح النَّبويِّ، بصفةٍ عامَّةٍ، عَلَى وقفاتٍ عندَ أحداثِ ليلةِ الميلادِ، وما أعقبَ تلك اللَّيلة من أحدَاثٍ ومرَاحلَ في حياةِ الرَّسُولِ ﷺ، كقولِ ابنِ الخَطِيبِ[37]:

وَفِي لَيْلَةِ الْمِيلاَدِ مِنْهُ بَدَتْ لَهَا ... شَوَاهِدُ لَمْ تَخْطُرْ لِنَفْس وَلاَ وَهْمِ
وَبَشَّرَهَا الأَمْلاَكُ أَنَّ وَلِيدَهَا ... إِمَامُ النَّبِيِّنَ الكِرَامِ أَولِي العَزْمِ
إِلى أَنْ تَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ نُورِ وَجْهِهِ ... كَمَـا شَبَّ سُحُبٌ عَن سَنَا قَمَـرٍ تَـمِّ

([34]) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 28 .

([35]) ساوةُ قريةٌ ما بين همذان والرَّي، وفي كلام سطيح الكاهن في تفسير الرُّؤيا الَّتي رأها كسرى ملك فارسأنَّه رأى ارتجاس الإيوان وخمود النِّيران وسقوط أربع عشرة شرفة من قصره، وأنَّ بحيرة ساوة غاضت،وقال: إذا كثرت التِّلاوة، وظهر صاحبُ الهراوة، وخمدت نارُ فارس، وغارت بحيرة ساوة، وفاض وادي السَّماوة، فليست الشَّامُ لسطيح شاماً، يُنظر:الحميرى محمَّد عبد المنعم، الرَّوض المعطار في خبر الأقطار، عني بنشره وتصحيحه وتعليق حواشيه ليفى برفنسال (مطبعة لجنة التأليف والتَّرجمة والنَّشر، القاهرة 1937م)، ص279.

([36]) ابن الخطيب: ديوانه،ص 226. وادي السَّماة : يوجد بين الكوفة والشَّام.

([37]) ابن الخطيب: ديوانه، ص 530.

وَقَدْ وَجَدْنَا أنَّ أكثرَ القصَائدِ تَحْتوي عَلَى الحديثِ عن المُعْجِزَات الَّتِي اشتهرتْ في كُتبِ السِّيرةِ، كَحنينِ الجَذعِ، وَشقِّ البدرِ، وَنبعِ المَاءِ من بين أصَابعِ الرَّسُول ﷺ، وَسلامِ الأحجارِ، وَتنزيلِ الكِتَابِ، وَتكليمِ الظَّبي، فضلاً عمَّا تناولته كتبُ السِّيرةِ وَالتَّاريخِ من أحْوَالِ أمِّ النَّبيِّ ﷺ منَ الأخبارِ وَالمُعْجِزَات عَلَى اختلافِ طُرقِهَا وَمَرَاتبِ صحتِهَا [38].

عَلَى أنَّ الشَّاعرَ يكْتَفِي –عادةً– ببعضِ هذه المُعْجِزَات، ويذكِّر بكثرتِهَا، وَمنَ الشُّعراءِ من قللَّ من ذكرِ المُعْجِزَاتِ، فَيبتعدُ بنصِّهِ عن العرضِ التَّقريريِّ النَّثريِّ إلى مستوى من مستويات الفنِّ الشِّعريِّ .

فابنُ زُمرك من الَّذين قللوا من عرضِ المُعْجِزَاتِ والمعلوماتِ التَّقريريَّةِ لصالح الإبداع الفنِّيَّ، كانَ يَكْتَفِي، أحياناً، بذكرِ معجزةٍ واحدةٍ أو اثنتين، كقوله[39]:

كَمْ آيَـةٍ لِرَسُــولِ اللهِ مُعْجِـزَةٍ تَكِلُّ عَنْ مُنْتَهاهَا أَلْسُـنُ الفُصَحَـا
إنْ رُدَّتِ الشَّـمْسُ مِنْ بَعْدِ الغُرُوبِ لَهُ قَدْ ظَلَّلَتْهُ غَمَامُ الجَوِّ حَيْثُ نَحَــا

وَليسَ مِنَ الغريبِ أنْ تَظْفَرَ صفاتُ الرَّسُول ﷺ بحيزٍ كبيرٍ بين موضوعاتِ المَدَائحِ النَّبويَّةِ، فذلك هو الموضوعُ الرَّئيسُ في هذا الغرضِ، وَقَدْ مُدِحَ، ﷺ، بخُلقهِ، وَأصلهِ، وَمجدهِ، وتَزْكِيةِ اللهِ له في القرآنِ المجيدِ، إلى آخر تلك الصِّفاتِ الَّتِي يحرصُ الشَّاعرُ عَلَى وجودِ دليلٍ عليها في النُّصوصِ الدِّينيَّةِ أو السِّيرةِ النَّبويَّةِ. ومن هذا القبيل قولُ عبد الحقِّ بن عطيَّة[40]:

رَؤُوفٌ رَحِيمٌ خَصَّهُ اللهُ بِاسْـمِـهِ وَأَعْظَمُ لاَجٍ فـي الثَّـنَاءِ وَعَـاقِـبِ
وَشَرَّفَهُ أَصْلاً وَفَـرْعاً وَمَحْتِـداً يُزَاحِمُ آفَـاقَ السُّـهَى بِالمَنَـاكِـبِ
سِرَاجُ الهُدَى ذُو الجَـاهِ وَالمَجْدِ وَالعُـلاَ وَخَيْرُ الوَرَى الهَادِي الْكَرِيــمُ المَنَاسِـبِ

ثُمَّ ينتقلُ الشَّاعرُ الغرناطيُّ إلى الوَحي وَالهجرةِ، وَمَا صَاحبْهما، من إيذاءِ المشركين لهُ ولرفيقِ رحلتِه أبي بكرٍ الصِّديقﷺ، ومَا كانَ من رعايةِ اللهِ لرسولِهِ، حيثُ قيَّضَ له حشرةً تَنسجُ عَلَى فوهةِ الغارِ سترًا، يُوهمُ جموعَ الشِّركِ، يقولُ عبدُ الكريمِ القيسيُّ[41]:

وَمِنْ العَجَائِبِ آيـةُ الغـارِ الَّتِـي صَحَّتْ فَأَنْجَدَ ذِكـرُهَا وَأَغـارَا

ثُمَّ ينتقلُ إلى وصفِ مَا اعترَى دليلَ قريشٍ، وَمَا انتابَ سرَاقةَ بن مالكٍ، عندما همَّ بإدراكِ رَكبِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فيقولُ:

عَمِيتْ بَصِيرَتُهُ فَلَمْ يُبْصِرْ بِهَا أحداً بِدَاخِلِهِ حَوَى اسْتِقْرَارَا
وَمُحَمَّدٌ فِيهِ مَعَ الصِّدِّيقِ قَدْ سَدَلَ الإلهُ عَليهِمَا أسْتَارَا
وسُراقةٌ إذْ أمَّهُ بِجَوَادِهِ لِخُرُوجِهِ عَنْ قَوْمِهِ إسرَارَا
غَرِقَتْ قَوَائِمُهُ عِقَابًا فـي الثَّـرَى فَرَأى الرُّجُوعَ، وَلَـو أبَـاهُ لَبَارَا

([38]) يُنظر أمثلة عَلَى ذلك في:ابن الخطيب، الكتيبة، ص139– 303.

([39]) ابن زُمرك، ديوانه، ص26، والمقَّري: الأزهار 54/2.

([40]) ابن الخطيب: الإحاطة 3/ 562 .

([41]) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 29–30.وسراقة هو ابن مالك بن جشعم الكناني، يُكنَّى أبا سفيان، أخرجه أبو سفيان ليقتافَ أثر الرَّسول حين خرج إلى الغار مع أبي بكر، أسلم بعد غزوة الطَّائف سنة 8هـ، ت24هـ، يُنظر:الزِّركلي، الأعلام (دار العلم للملايين، بيروت، 1995) 126/3.

ثُمَّ يرصدُ الشُّعرَاءُ مَا تنَاقلته كتبُ السِّيرةِ عن معجزَاتِه ﷺ، وما ظهرَ عَلَى يديه من خَوَارقِ العَادَاتِ، من ذلك قولُ الكاتبِ أبي القاسمِ مُحَمَّدٍ النِّجيبيِّ في مدحةٍ نبويَّةٍ له[42]:

يَا صَاحِ إنْ جِئتَ الخِيَامَ بِيَثْرِبٍ	**وَثْوَيتَ فِي ذَاكَ الحِمَى بِمَكَانِ**
فَانشُرْ لِوَاءَ مَحَبَّتِي بِفِنَائِهِ	**وَافضُضْ هُنَاكَ خَوَاتمَ الكُتْمَانِ**
وَالثم بِطِيْبةَ قَبْرَ مَنْ حُبِستْ لَهُ	**شَمْسُ النَّهَارِ وَخُصَّ بِالفُرقَانِ**
وَجَرَتْ بِأنملهِ حَيَاةٌ فَارْتَوَتْ	**مِنْهَا عسَاكرُ جِيشِهِ الظَّمآنِ**
وَالجذعُ حنَّ لَهُ وَسبَّحتِ الحَصَى	**فِي كَفِّهِ العُظْمَى بِغيرِ لِسَانِ**
وَالضَّبُّ كلَّمَهُ كَـلاماً بِيِّناً	**وَالبَدرُ شُـقَّ وَلاحَ رَأيُ عَيَـانِ**

وَمُعْجزةُ الإسْرَاءِ والمعْرَاجِ من بين المُعْجِزَاتِ الكثيرةِ الَّتِي شكَّلتْ نبعاً ثرّاً، استمدَّ منه الشُّعراءُ الغرناطيون عناصرَ أثرتْ مدائحَهم النَّبويَّةَ، فرَاحُوا يصفونَ إسراءَهُ ليلاً من الحرمِ المكِّي إلى بيتِ المقدسِ، ثمَّ معراجَهُ في السَّمواتِ السَّبعِ، حتَّى أضحَى﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (سورة النجم، آية 9) حَيثُ أمَّ الأنبيَاءَ، تميُّزاً وَتقدُّماً، يَقُولُ أبو القَاسمِ بنِ أبي زكريا البرجيُّ[43]:

سَرَى وَجُنحُ ظَلامِ اللَّيلِ مُنْسَدلٌ	**وَالنَّجمُ لا يَهْتَدِي فِي الأُفْقِ سَارِبُه**
يَسْمُو لِكُلِّ سَمَاءٍ مِنْهُ مُنْفَرِدٌ	**عَنْ الأنَامِ وَجَبْرَائيلُ صَاحِبُه**
لِمُنْتهىً وَقَفَ الرُّوحُ الأمـينُ بِهِ	**وَامْتَـازَ قُرباً فَلا خَلْقٌ يُقَـارِبُه**
لِقَابَ قَوسَيْنِ أو أدَنَى فَمَا عَلِـمَتْ	**نَفْسٌ بِمقدَارِ مَا أوْلاهُ وَاهــبُه**

وَقَدْ تَنَاولَ عبدُ الكريمِ القيسيُّ معجزةَ الإسراءِ وَالمعرَاجِ، بأسلوبٍ مفصَّلٍ، مضيفاً إليها تباينَ ردودِ فعلِ أصحَابِهِ، من جهةٍ، وَكفَّارِ قريشٍ، من جهةٍ ثانية، فَقَالَ[44]:

وَسَمَا بِهِ فَوقَ السَّمَاوَاتِ العُلَى	**وَأرَاهُ مِنْ آياتِهِ أسْرَارَا**
فِي صُحْبةِ الرُّوحِ الأمِيْنِ كَرَامةً	**وَعَلا عَلَى ظَهْرِ "البُرَاقِ" فَطَارَا**
إيهٍ وَفَارقَهُ الأمِينُ بِموْضِعٍ	**هُوَ حَدُّهُ مَا جَازَهُ استمْرَارَا**
فَشَكا إليهِ فِراقَهُ ثُمَّ ارْتَقَى	**فَرْدًا يَشُقُّ الحُجْبَ وَالأنْوَارَا**
حتَّى دَنَا مِنْ ربِّهِ جَلَّ اسْمُهُ	**فَأجَلَّهُ وَقَضَى لَهُ الأوْطَارَا**

وَمِن بين المعُجزاتِ، الَّتِي رَاحَ الشُّعرَاءُ الغرناطيون يضمِّنونها نسيجَ مدائحِهم النَّبويَّةِ معجزةُ رمي النَّبِيِّ ﷺ للثَّرى في وجوهِ المشركين في غزوةِ بدرٍ، فلم يبقَ منهم رجلٌ إلاَّ امتلأت عيناهُ وأنفهُ وفمهُ بالثَّرى، فَانهزَمُوا [45].قَالَ ابنُ الجيَّابِ[46] مضمِّناً إيَّاها نسيجَ قصيدةٍ مدحيَّةٍ لهُ[47]:

([42]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 303 .

([43]) ابن الخطيب: نفاضة الجراب، ص 384 .

([44]) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 29، الغريب: الأسود الحالك.

([45])يُنظر تصاريف ذلك: في الطَّبري محمد بن جرير: تاريخ الطَّبري تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، دار المعارف، 1960م) 2/421–455 .

([46]) علي بن محمَّد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الأنصاري، من أهل غرناطة، يُكنَّى أبا الحسن، ويُعرف بابن الجيَّاب، ت749هـ، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 125/4، (له ديوان شعر مخطوط غير

يَدُ المُصْطَفَى لَمَّا رَمَتْ قَبْضَةَ الثَّرَى بِبَدْرٍ عَلَى الكُفَّارِ لَمْ تُبْقِ مَنْ بُقْيا

وَتنَاولَ ابنُ الخطيبِ هذه الحادثةَ في مَعرضِ تعدادِ معجزاتِ النَّبيِّ ﷺ والإشادةِ بأفضالِه وَمَنَاقِبِهِ، فَقَالَ[48]:

وَفِي يَومِ بَدْرٍ إذ رَمَى قَبْضَةَ الثَّرَى فَوَلَّتْ جُمُوعُ الشِّركِ، وَهِي جَوَامِحُ

وَعبدُ الكريمِ القيسيُّ مرَّ عليهَا، لكن دُونَمَا تصريحٍ بِذكرِ غزوةِ بدرٍ، فَقَالَ[49]:

وَهَزِيمَةُ الأحزَابِ أبْدَاهَا لَهُ فَبَدَتْ لِيُظْهِرَ دِينَهُ إظْهَارَا

وَرَمَى التُّرَابَ عَلَى العِدَى فِي البَعْضِ مِنْ غَزَوَاتِهِ فَغَدَا لَهُ أحْجَارَا

وَيَمْضِي الشُّعراءُ الغرناطيون في تعقُّبِ مُعجزَاتِ النَّبِيِّ المتعدِّدةِ، الَّتِي حفظَتْهَا لنا كتبُ السِّيرةِ، وَتَنَاقلَهَا الرُّواةُ عبرَ العصورِ، ثمَّ انتقلوا إلى صفاتِهِ الخلقيَّةِ، فَامتدحُوا صدقَهُ وَكرمَه وَحلمَهُ، وزكاءَ أرومته، وَخيرُ نموذجٍ شعريٍّ حَوى عدَداً من صفاتِهِ قولُ ابنِ الصَّائغِ[50]:

يَا سَارياً وَاللَّيلُ سَاجٍ عَاكِفُ يَفْرِي الفَلا بِنَجَائِبٍ وَنِيَاقِ

عَرِّجْ عَلَى مَثْوَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ خَيْرِ البَرِيَّةِ ذِي المَحَلِّ الرَّاقِي

الظَّاهِرُ الآياتِ قَامَ دَلِيلُهَا وَالطَّاهِرُ الأخْلاقِ وَالأعْرَاقِ

بَدْرُ الهَوَى البَادِي الَّذِي آيَاتُهُ وَجَبِينُهُ كَالشَّمْسِ فِي الإشْرَاقِ

وَقَدْ وَجَدَ الشُّعراءُ الغرناطيون في ابتلاءِ النَّبِيِّ ﷺ وَجهادِهِ وَشجَاعتهِ مَيدَاناً رَحْباً لإثراءِ مَدَائحهم، ودروساً، هُم في أشدِّ الحاجةِ إليها؛ لِدفعِ الخَطرِ المُحدقِ بهم، فيقولُ ابنُ الجيَّاب موجِّهاً خطابَهُ لأبي الحجَّاج يوسف:

وَحَسْبُكَ بِالمُولَى المُقدَّسِ أسوَةً فَمَازَالَ يَلْقَى مِنْ حرُوبِ العِدَا بَرْحَا

فَكَمْ قَامَ فِيهَا جَاهِداً وَمُجَاهِداً يُسَلُّ لَهَا عَزْمًا وَيُورِي لَهَا قَدْحَا

وَكَمْ كَابَدَ الإسْلامُ مِنْ هَوْلِ مَرْقَبٍ شَدِيدٍ فَقَدْ أمْسَى مَرْوعاً كَمَا أضْحَى (51)

محقق في دار الكتب المصرية تحت رقم 2424، وقد ذكر ابن الخطيب أنَّه جمعه بعد وفاة شيخه).

([47]) ابن الجيَّاب: ديوانه، ص 267 .

([48]) ابن الخطيب: ديوانه،ص 226 .

([49]) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 26 .

([50]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 89 .

([51]) ابن الجيَّاب: ديوانه، ص 33-34 .

ج- سيرةُ الأنْصَارِ وَالخُلَفَاءِ الرَّاشِدِين:

إذا كَانتْ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ وَمعجزاتُه قد غطَّتْ مَسَاحةً شَاسعةً عَلَى صحائفِ مدَائحِ الشُّعراءِ الغرناطيِّين للنَّبيِّ ﷺ، فإنَّهم لم يَتَجَاهَلُوا الدَّورَ الَّذِي لعبَهُ الأنصَارُ في نصرةِ الدَّعوةِ، وَالجهدَ المُضْنِي الَّذِي بذلَهُ الصَّحابةُ وَالخُلفاءُ الرَّاشدون، في الحِفَاظِ عَلَى مشعلِ الدَّعوةِ مُتَوَهِّجاً، وَقَدْ جَاءَ حديثُهم من خِلالِ إشَارَاتٍ عَابرةٍ، من دونِ الوقوفِ أمَامهم طَويلاً، يَقُولُ ابنُ الخَطِيبِ مِنْ قَصِيدةٍ نظمَهَا عَلَى لسانِ قيسِ بنِ يوسفٍ أبي الحجَّاج، بَدَأها بحمدِ الله والثَّناءِ عليه، ثمَّ الصَّلاة عَلَى النَّبِيِّ وَذكرِ فَضَائلِهِ،وَلينخرطَ، بعد ذلك، في ذكرِ الخلفاءِ الرَّاشدين وَالأنصارِ، فقال[52]:

صَلَّى عَلَيهِ الَّذِي أَهدَاهُ نُورَ هُدَىً ... مَا هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ بَعدِ الجَنُوبِ صِبَا

ثُمَّ الرِّضَى عَنْ أبي بَكْرٍ وَعَنْ عُمَرٍ ... بَدْرَانِ، مِنْ بَعدِهِ، لِلمِلَّةِ انْتُخِبَا

وَبَعْدُ،عُثمَانُ ذُو النُّورَينِ ثَالثُهُمْ ... مَنْ أَحْرَزَ المَجْدَ مَوْرُوثاً وَمُكْتَسَبَا

وَعَنْ عَلِيٍّ أبِي السِّبْطَيْنِ رَابِعِهِمْ ... سَيْفِ النَّبِيِّ الَّذِي مَا هَزَّهُ فَنَبَا

وَسَائِرِ الأهْلِ وَالصَّحْبِ الكِرَامِ فَهُمْ ... قَدْ أَشْبَهُوا فِي سَمَاءِ المِلَّةِ الشُّهْبَا

وَبَعْدُ أنْصَارُهُ الأرضونَ، إنَّ لهُمْ ... فَضَائلاً أعْجَزَتْ مَنْ عَدَّ أو حَسَبَا

وَفِي مَوطِنٍ آخر يُركِّزُ ابنُ الخَطِيبِ حديثَه عَلَى دَورِ الأنصَارِ وَالصَّحابةِ في نشرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّة وَالذَّودِ عنهَا بِالنَّفْسِ وَالوَلدِ، وَمَا مَلَكَتْ أيديهم، مُتَّخذاً مِنْ مَوْقِفِ الأنصَارِ وَالصَّحابة أداةً لِشَحْذِ همِمِ الأنْدَلُسيِّين؛ لنصرةِ دينِ الإسلامِ، الَّذِي أضحَى مُهدَّداً، فقالَ[53]:

وَإنَّا اقْتَدَينَا فَاهتَدَينَا بِصَحبِهِ ... وَمَا صَحْبُهُ إلاَّ النُّجُومُ اللَّوَائِحُ

أبَادُوا شَيَاطِينَ الضَّلالِ وَزَيَّنَت ... سَمَاءَ رُسُومِ الحَقِّ مِنْهُمْ مَصَابِح

أُولاكَ الأُلَى بِالأنْفُسِ اشْتَرَوا الهُدَى ... فَتَجْرُهُمْ فِي جَنَّةِ الخُلْدِ رَابِحُ

رَعَوْا لِرَسُولِ اللهِ حَقَّ وَصَاتِهِ ... فَدَاعَتْ بِهِمْ المُسلِمِينَ النَّصائحُ

وَابنُ الجيَّابِ، في حديثِهِ عن دورِ الأنصَارِ وَشجَاعَتِهِم وَبلائِهِم، لمْ يطلقِ الحَدِيثَ عَلَى عوَاهنِهِ، بل رَاحَ يتحدَّثُ عن مواقِفِهم البطوليَّةِ، محدِّداً الوقائعَ، فقال[54]:

حتَّى إذا بُعثَ الرَّسُولُ مُحَمَّدُ ... وَبَدَا لِصُبْحِ الحَقِّ مِنْهُ عَمُودُ

سَنَحُوا لَهُ بِنُفِيسِهِم وَنُفُوسِهِم ... فَلِوَاؤهُمُ فِي نَصْرِهِ مَعْقُودُ

أموَالُهُم مَبْذُوْلَةٌ وَسيُوفُهُم ... مَسْلُولةٌ وَمَقَامُهُم مَشْهُودُ

أيَّامُ بَدْرٍ وَالنَّضِيْرِ وَخَيْبَرٍ ... بِالصَّالِحَاتِ البَاقِيَاتِ شُهُودُ

([52]) ابن الخطيب: ديوانه،ص 118 .

([53]) ابن الخطيب: ديوانه،ص 227-228 .في البيت الأوَّل إشارة إلى حديث الرَّسول(أصحابي كالنُّجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) وفي البيت الثَّالث إشارة إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوُاْ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾(البقرة: آية 15) .

([54]) ابن الجيَّاب: ديوانه، ص 39 .

وَلعليٍّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه دورٌ كبيرٌ في نصرةِ دينِ الله، ومؤازرةِ النَّبِيِّ؛ لذا وَجَدَ الشُّعراءُ الغرناطيون في شجاعتهِ وَرَبَاطةِ جأشهِ واندفاعِهِ في سَاحَاتِ القتالِ، مادَّةً محبَّبةً، يُضمِّنونهَا حَنَايا قصَائدهم النَّبويَّةَ، يقولُ ابنُ الجيَّابِ [55]:

فَإذَا العَسَاكِرُ أحْجَمَتْ ألفَيْتَهُ ... مُتَقَدِّماً يَلْقَى الحِمَامَ الأحْمَرَا

أُسْدٌ إذا لاقَى الجِيُوشَ رَأيتَهُ ... مُتحَدِّياً أبْطَالَهَا مُتَخيِّرَا

فَلسَيْفِهِ فِي رَأسِ كُلِّ مُعَانِدٍ ... وَمُكذِّبٍ مِصْدَاقُ مَا قَدْ أنْكَرَا

وَبِخَيْبَرٍ أحيَا الإلَهُ بِهِ الهُدَى ... وَأقَامَهُ فِيهِ المَقَامَ الأشْهَرَا

د–العجزُ أمامَ إدراكِ شخصيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ:

إذا كَانَ مدحُ النَّبِيِّ ﷺ وَتعدَادُ مَنَاقبِهِ وَمعجزاتِهِ أضحَى ميدَاناً مُحبَّباً لشعراءِ غرناطة فإنَّهم –مع ذلك– كثيراً مَا عبَّرُوا عن عجزِهم أمَامَ ارتيادِ آفَاقِه الشَّاسعةِ، وَالخوضِ في غِمَارِ لجِّه الزَّاخرِ، فَأبو القَاسمِ ابن جُزَيّ [56] يُعربُ عن رغبتهِ الصَّادقةِ في مدْحِ النَّبِيِّ، وَلكن قصورَهُ يَحُولُ دُونَ تَحْقِيقِ مَا يريدُ، فَيَقُولُ مُقرِّراً ذلك[57]:

أرُوْمُ امْتِدَاحَ المُصْطَفَى فَيصُدُّني ... قُصُوْرِيَ عَنْ إدْرَاكِ تِلكَ المَنَاقِبِ

وَمَنْ لِي بِحَصْرِ البَحْرِ وَالبَحْرُ زَاخرٌ ... وَمَنْ لِي بإحْصَاءِ الحَصَى وَالكَوَاكِبِ

وَلَو أنَّ أعضَائي غَدَتْ ألْسُناً إذاً ... لَمَا بلغتْ فِي المَدْحِ بَعْضَ مَآرِبِي

فَأَسْكُتُ عَنْهُ هَيْبَةً وَتَأدُّباً ... وَخَوْفاً وَإعْظَاماً لأرْفَعِ جَانِبِ

وَرُبَّ سُكُوتٍ كَانَ فِيهِ بَلاغَةٌ ... وَرُبَّ كَلامٍ فِيهِ عَتْبٌ لِعَاتِبِ

وَفِكْرَةُ العَجزِ عن حَصْرِ مَنَاقِبِ النَّبِيِّ ﷺ وَصِفَاتِه وَمُعْجِزَاتِه ملْمَحٌ يلحُّ عَلَى الشُّعراءِ الغرناطيِّين، فراحوا يكرِّرُونَهَا في تضاعيفِ مدائحهم النَّبويَّةِ، مع اختلافٍ في الصِّياغةِ، وتباينٍ في موطنِ التَّقديم، يقولُ ابنُ الخطيبِ[58]:

خَلِيْلَيَّ مَاذَا يَحْصُرُ القَوْلُ إنْ غَلا ... وَمَاذَا عَسَى يَحْصِي الكَلامُ وَإنْ نَدَّا

وَمَـاذَا يُعَدُّ الوَصْفُ مِنْ مُعْجِـزَاتِـهِ ... وَأيُ رَسُـولِ اللهِ تَسْـتَغْرِقُ العَـدَّا

([55]) ابن الجيَّاب: ديوانه، ص 91–94.

([56]) محمَّد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرَّحمن بن يوسف بن جُزَيّ الكلبيّ، من أهل غرناطة، كان فقيهاً قائماً عَلَى التَّدريس، من مؤلفاته"وسيلة المسلم في تهذيب صحيح مسلم" وكتاب "الدَّعوات والأذكار"، ت758هـ، يُنظر:المَقَّري، الأزهار، 115/3، وابن الخطيب، الكتيبة، ص 46.

([57]) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 48 .

([58]) ابن الخطيب: ديوانه، ص 356 .

وَيَقُولُ ابنُ فُركون [59] مظهراً عجزه هو الآخر[60]:

بِمَاذَا عَسَى أثْنِي عَلَى المُصْطَفَى الَّذِي — أَتَى فِيهِ نَصُّ الذِّكْرِ وَالذِّكْرُ مُحْكَمُ

فَمَنْ ذَا يَعُدُّ الشُّهْبَ وَالعَدُّ مُعْجِزٌ — وَمَنْ ذَا يَرُوْمُ البَحْرَ وَالبَحْرُ مُفْعَمُ

هـ–الشَّفاعةُ وَالتَّوسُّل:

ثمَّةَ عُنصرٌ آخر تَنْهضُ عليه المدائحُ النَّبويَّةُ، يتمثَّلُ فِي التَّشفُّعِ والتَّوسُّلِ بالنَّبِيِّ ﷺ، وَهذا العنصرُ يأتي تطوُّراً طبيعيّاً لحديثِ الشُّعراءِ عن جوَانِبِ الثَّرَاءِ في شخصيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. وقد تَبَاينت مواقفُ الشُّعراء الغرناطيين في هذا الإطارِ، فمنهم من تشفَّعَ لِقضَاءِ حَاجَاتٍ آخِرِيَّةٍ، وَمنهم مَنْ تشفَّعَ من أجلِ أمورٍ دنيويَّةٍ ؛ وفي كُلِّ الحَالاتِ يَقْتَرِنُ طلبُ الشَّفَاعةِ بالاعترافِ بالتَّقصيرِ وَكثرةِ الذُّنُوبِ، يقولُ ابنُ زُمرك[61]:

قَدْ أبعَدَتني ذُنُوْبِي عَنْكَ يَا أمَلِي — فَجُهْدِيَ اليَوْمَ أنْ أُهْدِي لَكَ المَدْحَا

يَا سيِّدَ الرُّسُلِ يَا نِعْمَ الشَّفيعِ إذَا — طَالَ الوقُوفُ وَحَرُّ الشَّمْسِ قَدْ لَفَحَا

أنتَ المُشَفَّعُ وَالأبْصَارُ شَاخِصَةٌ — أنتَ الغِيَاثُ وَهَوْلُ الخَطْبِ قَدْ فَدَحَا

حَاشَ العُلا، وَجَمِيلُ الظَّنِّ يَشْفَعُ لِي، — أنْ يُخْفِقَ السَّعيُ مِنِّي بَعْدَ مَا نَجَحَا

عَسَاكَ يَا خَيْرَ مَنْ تُرْجَى وَسَائِلُهُ — تُنْجِي غَرِيقاً بِبَحْرِ الذَّنبِ قَدْ سَبَحَا

وإذا كَانَ ابنُ زُمركٍ قدِ اعترَفَ بتقصيره وَارتكابِ الذُّنوبِ، فإنَّ ابنَ الخطيبِ قَرَنَ شفاعَته باعترَافِه بالتَّقصيرِ عن أداءِ وَاجبِ زيارةِ ضَريحِ النَّبِيِّ ﷺ والتَّبرُّكِ بثرَاه الطَّاهرِ، وَهذا المَلْمَحُ دائمُ التِّكرارِ في مدائحِهِ النَّبويَّةِ، فقال[62]:

إلى كَمْ أُرَانِي فِي البِطَالَةِ كَانِعاً — وَعُمْرِيَ قَدْ وَلَّى وَوِزْرِيَ قَدْ عُدَّا

تَقَضَّى زَمَانِي فِي لَعَلَّ وَفِي عَسَى — فَلا عَزْمةٌ تُمْضَى ولا لوعةٌ تَهْدَا

حُسامُ جَبَانٍ كُلَّمَا شِيمَ نَصْلُهُ — تَرَاجعَ بَعْدَ العَزْمِ وَالتَزَمَ الغِمْدَا

وأُطْفِئَ فِي تِلكَ المَوَارِدِ غُلَّتِي — وأُحسبَ قُرْباً مُهْجَةُ شَكَتِ البُعْدَا

وإذا كانَ ابنُ الخَطيبِ قَدْ تشفَّعَ وَتوسَّلَ لقضاءِ حاجَاتٍ آخريَّةٍ، فإنَّ عبدَ الكريم القيسيَّ توجَّه بشفاعتَه للنَّبيِّ ﷺ فَعَسَى أنْ يَفُكَّ قيدَه وَيُطلقَ سَرَاحَه، فقالَ، وَهُوَ رَهنُ الأسْرِ بأَبَّذة[63]:

([59]) أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمَّد بن أحمد القرشيُّ المعروفُ بابن فُركون، يُكنَّى أبا جعفر، مدحه ابن الخطيب في الإحاطة 220/1، ثم حمل عليه في الكتيبة، ص 305.وأبو الحسين ابنه الذي جمع مجموعةً من الأشعار في مدحِ السُّلطان يوسف الثَّالث وسمَّاها "مظهر النُّور الباصر في أمداحِ الملك النَّاصر" حقَّقه وأعدَّه د. محمَّد بنشريفة (المغرب، الرِّباط، 1991م).وله ديوان شعر، حقَّقه د.محمَّد بنشريفةُ أيضاً (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط1، الرِّباط 1987م).

([60]) ابن فُركون: ديوانه، ص 324 .

([61]) المقَّري: الأزهار 51/2، وابن زُمرك، ديوانه، ص27.

([62]) ابن الخطيب: ديوانه، ص349.الكانع: الَّذي تدانى وتصاغر، والشَّملة: النَّاقة السَّريعة، والكور:الرَّحل، أي جعل كورها مهداً، ينام عليه، يعني أنَّه دائم السَّفر.

([63]) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 31 .

يَا خَاتمَ الأَرْسَالِ يَا خَيْرَ الوَرَى وَأَجَلَّ مَنْ سُحُبِ النَّجَاةِ أَثَارَا
أَنْتَ العَظِيمُ لَدَى الإِلَهِ شَفَاعةً وَأَجَلُّ مَخْلُوقٍ عَلاَ مِقْدَارَا
مَا لِي إِلى رَبِّي سِوَاكَ وَسِيْلَةٌ أَرْجُو بِهَا أَنْ تَمْحُوَ الأَوْزَارَا
فَلَقَدْ غَدَوْتُ حَلِيفَ أَسْرٍ مُكْرِبٍ بِدِيَارِ قَوْمٍ أَصْبَحُوا كُفَّارَا
يُمْسِي وَيُصْبِحُ فِي الحَدِيدِ مُقَيَّداً مَعَ جُمْلَةٍ مِنْ مُسْلِمِيْنَ أُسَارَى

وَمِنَ النَّمَاذِجِ الَّتِي تعكسُ صِدقًا عَميقاً، يحرِّكُهُ إيمانٌ صَادقٌ قولُ القاضي أبي زيد البلويِّ[64]:

يَا سَيِّدَ الأَرْسَالِ ظَهْرِي مُثْقَلٌ فَعَسَى تَخفُّ بِجَاهِكُم أَوْقَارُهُ
وَافَى حِمَاكَ يَفُرُّ مِنْ زَلاتِهِ وَإِليكَ يَا خَيْرَ الأَنَامِ فِرَارُهُ
وَأَتَاكَ يَلْتَمِسُ الشَّفَاعَةَ وَالرَّجَا يَقْتَادُهُ وَظْنُوْنُهُ أَنْصَارُهُ
وَالعَبْدُ مُعْتَذِرٌ ذَلِيْلٌ خَاضِعٌ وَمُقَصِّرٌ قَدْ طُوِّلَتْ أَعْذَارُهُ

وَقَدْ درجَ مادحو النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنْ تُختتمَ مدائحهم بالصَّلاةِ والسَّلامِ عليه، وَسلكَ الشُّعراءُ الغرناطيون ذاتَ الدَّربِ، يقولُ عبدُ الكَريمِ القيسيُّ[65]:

صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ مَا بَلَغَ المُنَى مَنْ أَمَّ قَبْرَكَ فِي القُبُورِ وَزَارَا
وَابتلَّ قَطْرُ الزَّهْرِ مِنْ قَطْرِ النَّدَى وَسَرَى النَّسِيْمُ يُرَقِّمُ الأَشْجَارَا

وَيَقولُ ابنُ زُمرك[66]:

فَصَلَّى عَلَيكَ اللهُ مَا انْسَكَبَ الحَيَا وَمَا سَجَعَتْ وَرْقَاءُ فِي غُصُنِ البَانِ

و . مَدْحُ مَنْ رُفعت المَدحةُ إليه:

وَقَدْ يعقبُ الصَّلاةَ والسَّلامَ مَديحٌ للسُّلطانِ الَّذِي نُظِمَتْ المدائحُ على عَهْدِهِ، بمَا يتناسبُ وَجلالِ المناسبةِ، فَيَثني عَلَى خُلقِهِ الإسلاميِّ وَاقتدائِه بسنَّةِ النَّبِيِّ، من هؤلاء ابنُ زُمرك الَّذِي ذيَّلَ بعضَ مدَائحِهِ النَّبويَّةِ بمدحِ الغنيِّ بالله الَّذِي فاقَ – من حيثُ الكمِ– ما خُصصَ للنَّبيِّ ﷺ، ففي إحدى مُوْلِدِيَّاته خصصَ ستةً وَثلاثين بيتاً لمدحِ الرَّسُول ﷺ مقابلَ أربعينَ بيتاً لمدحِ الملكِ النَّصريِّ[67]. بل لم يَتَردَّدْ في عَقدِ مُقَارنةٍ بين النَّبِيِّ ﷺ وَبينَ الغنيِّ بالله، مُضِيفاً عليه من الصِّفاتِ مَا يَضَعه في مصَافِ الرَّسُول ﷺ.

وَهذا مَا رَفَضَه الغنيُّ بالله ذاتُه فقد أوردَ المَقَّريُّ عن ابنِ الأحمرِ في صدرِ مُوْلِدِيَّة لابن زُمرك فقالَ: (وأنشدَ من ذلك في مَوْلِدِ 768هـ وَقدْ كانَ مولانا الغنيُّ بالله –رَضي الله عنه– أَبَى أَنْ يُرْسِلَ العنانَ في مدحِ مقامِهِ، مبالغةً في

(64) ابن الخطيب: الكتيبة، ص 136–137 .
(65) عبد الكريم القيسي: ديوانه، ص 31 .
(66) المَقَّري: الأزهار 42/2، والنَّفح 46/5 وابن زُمرك، ديوانه، ص 119.
(67) هذه المُوْلِدِيَّة قال سنة 765هـ، يُنظر :المَقَّري: النَّفح 46/5، وابن زُمرك، ديوانه، ص 116.

تَوقِيرِ جَانبِ المُصْطَفى ﷺ وَإعظَامِهِ، فلهذا القَصدِ الأدبيِّ الكريمِ أتَى من المدحِ السُّلطَانِي في آخرِهَا المُلتمحُ القريبُ .. ومدَّ القولَ في ذكرِ الرَّسولِ وَعجَائبِ مَجْدِهِ..)[68].

وَالحَقِيقةُ أنَّ هذه المُوْلِدِيَّةَ جَاءت خاليةً من المَدْحِ، اللَّهمَّ إلاَّ في خمسةِ أبياتٍ، مدحَ الغنيَّ بالله في ثلاثٍ منها، وَأبدى إعجَابَه بقصيدته في بيتين، فقالَ[69]:

صَلَّى الإلهُ عَلَى المُخْتَارِ صَفْوَتِه ... مَا العَارِضُ انْهَلَّ أو مَا البَارِقُ التَمَحَا

وَأيَّدَ اللهُ مَوْلانَا بِعِصْمَتِهِ ... بِأيِّ بَابٍ إلى العَلْيَاءِ قَدْ فُتِحَا

وَهُنِّىءَ الدِّينُ وَالدُّنْيَا عَلَى مَلِكٍ ... بِسَعْدِهِ الطَّائرُ الميمُونُ قَدْ سَنَحَا

أنَا الضَّمِيْنُ لِمَكْحُولٍ بِغُرَّتِهِ ... ألاَّ تَرَى عَيْنُهُ بُؤْسًا وَلا تَرَحَا

مَوْلايَ خُذْهَا كَمَا شَاءَتْ بَلاغَتُهَا ... غَرَّاءَ لَمْ تَعْدَمِ الأحْجَالَ وَالقُزَحَا

كأنَّ سِرْبَ قَوَافِيْهَا إذَا سَنَحَتْ ... طَيْرٌ عَلَى فَنَنِ الإحْسَانِ قَدْ صَدَحَا

وَتَبْقَى مدائحُ ابن الخطيب، نموذجاً لغيرِهَا منَ المدَائحِ النَّبويَّةِ في غرناطة، مع وجُودِ فروقٍ طفيفةٍ بين شعراءِ هذه المرحلةِ، وعَلَى الرَّغمِ من أنَّ الجَانبَ الذَّاتي في مَدَائحِهِ يطغَى طغياناً شبه تامٍّ عَلَى الجَوَانبِ الأخرى، وَلكنَّهُ لا يغفلُها ؛ وَمَع ذلك، فهنَاكَ بعضٌ من مدائِحِهِ النَّبويَّةِ لم يرفعْهَا إلى أحدٍ من السَّلاطين، أو حذفَ منها الأبيات الَّتِي تذكرهم، مثلُ القصيدةِ الَّتِي مطلعها[70]:

مَلَكْتَ رَسُوْلَ اللهِ رِقِّي فَمَنْ يَبْـرَحْ ... وَأَوْلَيْتَنِي الحَظَّ الرَّغِيبَ وَمنْ يَشْـرَحْ

وَمثلُ قصيدته الَّتِي مطلعها[71]:

هَاجَتْكَ إذْ جِئْتَ اللِّوى "فَـزَرُوْدَا" ... ذِكْـرَاكَ أوْطَـاناً بِهَـا وَعْهُـودَا

وَمِن مضامينِ قصيدةِ المَدِيح في شعرِ شعراءِ غرناطة المواعظُ وَالتَّذكيرُ وَعتابُ النَّفسِ، وَالحكمةُ وَالزُّهدُ، وَأكثرُ ما نجدُ من ذلك في المعشرَاتِ.وَمن تلك المضَامِينِ الاعتبارُ، وَقَدْ أحسنَ ابنُ خاتمة الأنصاريِّ [72] الاستعانةَ بالإبداعِ الإلهيِّ للطَّبيعةِ، ليكوِّنَ مادَّةَ الاعتبارِ، وَقَدْ يمزجُ ذلك بوصفِ الخَمرةِ، فيُغربُ بمعَانِيهِ عن معتادِ مَعَاني قصيدةِ المَدِيح، كقولِه[73]:

وَلْتَجْلُهَا بِنْتَ دَنٍّ عُمْرُهَا عُمُري ... تَسْتَدْرِجُ العَقْلَ فِعْلَ الشَّيْبِ بِاللَّمَمِ

فَمَا لَهَا غَيْرُ رُوحِ الرُّوحِ مِنْ قَدَحٍ ... وَلاَ لَهَا غَيْرُ سِرِّ السِّرِّ مِنْ فَدَمِ

([68]) المَقَّري: الأزهار 51/2، وابن زُمرك، ديوانه، ص 24.

([69]) المَقَّري: الأزهار 51/2، وابن زُمرك، ديوانه، ص 27.الأحجال: الخلخال، والقُزح:الألوان.

([70]) ابن الخطيب: ديوانه، ص240 .

([71]) ابن الخطيب: ديوانه، ص351 وزَرودا اسم موضع أو اسم رمل مؤنث.

([72]) أحمد بن علي بن محمَّد بن علي بن محمَّد بن خاتمة الأنصاريّ، من أهل ألمريَّة، يكنَّى أبا جعفر،ويُعرف بابن خاتمة، ت770هـ، يُنظر: ابن الخطيب، الإحاطة 239/1–259، والكتيبة، ص 239، وابن الأحمر، ونثير الجمان، ص176، له ديوان شعر تحقيق د. محمَّد رضوان الدَّاية(وزارة الثَّقافة، دمشق1978م).

([73]) ابن خاتمة: ديوانه، ص 18– 19–20 .

وَمِن هذه المدحةِ في وصفِ الطَّبيعةِ قولُهُ:

قُمْ هَاتِهَا فَرِيَاضُ الكَوْنِ قَدْ جُلِيَتْ وَقَامَ لِلحُسْنِ تَرْتِيبٌ عَلَى قَدَمِ

وَمِنْهَا في المَدِيح النَّبَويِّ، بعد استِفَاضةٍ في وَصفِ الطَّبيعةِ، قولُهُ:

لِعُمدَةِ الدِّينِ وَ الدُّنْيَا وُقُطْبِهِمَا وَمُنْتَهَى الشَّرَفِ الأَصْلِيِّ وَالْكَرَمِ

لأَفْضَلِ النَّاسِ مِنْ حَافٍ لِمُنْتَعِلٍ وَأَكْرَمِ الرُّسْلِ مِنْ بَادٍ لِمُخْتَتِمِ

وَهكذا فَقَدْ شكَّلتْ أشعارُ المدائحِ النَّبويَّةِ ظاهرةً، استهوتْ عامَّة النَّاسِ وخاصَّتهم، وَكانتْ مُنَاسباتُ المَوْلِدِ النَّبَويِّ مَيدَاناً وَحَافِزاً عَلَى الاهتمامِ بِهَا .

غيرَ أنَّها تَجَاوزتْ هذا الميدانَ لِتَعلقَ في فنونٍ أخرى، ويَفْرُدُ لهَا بعضُ الشُّعراءِ دواوينَ خَاصَّة، تَفُوقُ مَا وَضعه غيرُهم في أغرَاضٍ مختلفةٍ [74].

أمَّا من حيثُ الشَّكلِ، فإنَّ أغلبَ قصَائدِ المَدِيح النَّبويِّ الغرناطيَّة تَسْتندُ إلى القَصِيدةِ العَمُوديَّةِ القائمةِ عَلَى نظَامِ الشَّطرينِ، وَوحدةِ الرَّوي وَالقافيةِ، وَاعتمادِ التَّصريعِ وَالتَّقفيةِ في المطلعِ الأوَّلِ منَ القصيدةِ .

كَمَا تَّتسمُ القصائدُ النَّبويَّةُ والمُوْلِديَّةُ بِتَعددِ الأغرَاضِ وَالمواضيع، عَلَى غرارِ الشِّعرِ العربيِّ القديمِ ؛ وَالسَّبب في هذا التَّعَدُدِ هو معارضةُ القصَائدِ الأصليَّةِ، كقصائدِ البوصيري وَقصيدةِ كعبٍ بن زهير وغيرِها. وهذه المُعَارضةُ دفعَتِ الشَّاعرَ الغرناطيَّ إلى انتهَاجِ البناءِ نفسِهِ، والسَّيرِ عَلَى ذاتِ الإيقاعِ وَالرَّوي وَالقافيةِ،وَاستخدَامِ الألفَاظِ وَالأغرَاضِ الشِّعريَّةِ نفسهَا.

وَمن ثُمَّ، فَالقصيدةُ النَّبويَّةُ تتَكوَّنُ، عَلَى مستوى البنَاءِ، من المقدِّمةِ الغزليَّةِ ووصفِ المطيَّة وَمدحِ الرَّسولِ ﷺ وَالتَّصليةِ وَالدُّعاءِ وَالاستغفارِ والتَّوبةِ . وهذا ما أفْقَدَ المَدِيح النَّبويَّ الوحدةَ الموضوعيَّةَ والعضويَّةَ، عَلَى الرَّغمِ من وجودِ الاتِّساقِ اللُّغويِّ عَلَى مستوى السَّطحِ الظَّاهريِّ، والانْسجَامِ عَلَى مستوى العمقِ الدِّلاليِّ .

وَفيما يَخصُّ الإيقاعَ الخارجيَّ، اعتمدتْ قصائدُ المَدِيح النَّبويِّ الغرناطيِّ عَلَى البحورِ الطَّويلةِ الجَادةِ، الَّتِي تتَنَاسبُ مع الأغرَاضِ الجليلةِ المهمَّةِ، كَالمَدِيح النَّبويِّ وَالتَّصوُّفِ الرُّوحانيِّ وَالتَّشيُّعِ لآل البيت ؛ لذلك يستعملُ شعراءُ بني الأحمر في مدائحهم النَّبويَّةِ البحرَ الطَّويلَ، والكاملَ، وَالوافرَ، وَالخفيفَ. وَيعدُّ البحرُ البسيطُ من أهمِّ البحو رِ المفضَّلةِ لدى شعراء المَدِيح النَّبويِّ وَلدَى شعراءِ المُعَارضةِ.

وَمن أهمِّ القَوَافي الَّتِي استُعملتْ كثيرًا في الشِّعرِ النَّبويِّ: الميمُ وَالسِّين وَاللام وَالتَّاءُ والرَّاءُ وَالحاءُ وَالهمزةُ وَالجيمُ ؛ وَهي قوافي صالحةٌ وَطيّعةٌ لِرصدِ التَّجربةِ الشِّعريَّةِ المُوْلِدِيَّةِ أو النَّبويَّةِ أو الصُّوفيَّةِ الرُّوحانيَّةِ، مَاعَدا قافيةُ الجيمِ الَّتِي تثيرُ جرسًا خَشِنًا وَنشازًا شاعريًا .

وعَلَى مستوى الإيقاعِ الدَّاخليِّ، فَشعرَاءُ المَدِيح النَّبويِّ في غرناطة استعملوا، بكثرة، ظاهرةَ التَّصريعِ والتَّوازي الصَّوتي وَالتِّكرارِ الإيقاعيِّ، وَالجمعِ بين الأصوَاتِ المهموسةِ وَالأصوَاتِ المجهورةِ . وَقَدْ انسجمَ هذا الإيقاعُ الشِّعريُّ، بكاملِهِ، مع الجوِّ الموسيقيِّ وَالنَّفسيِّ وَالدِّلاليّ للقصائدِ المدحيَّةِ .

([74]) الإشارة إلى دواوين ابن جابر الَّتِي تفوق حجمها سائر دواوين العصر المعروفة، ولا تكاد تخرج عن غرض المَدِيح النَّبويّ، وإلى أشعار السَّاحليِّ الصُّوفيِّ وسواه، ممن أكثر من المدائح النَّبويَّة .

أمَّا اللُّغةُ الشِّعريَّةُ فقد استمدَّتْ ألفاظَهَا المعجميَّةَ في قصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ من حقلِ الدِّينِ، وَحقلِ الذَّاتِ، وَحقلِ العَاطفةِ، وَحقلِ الطَّبيعةِ الأنْدَلُسيَّةِ وَالحجازيَّةِ، وَحقلِ المكان وَحقلِ التَّصوُّفِ . كَمَا امتازتْ بالجزالةِ، وَفخامةِ الكَلِمَاتِ، وَقوَّةِ السَّبكِ، وَرَصَانةِ الصِّياغةِ، وهيمنةِ المعجمِ التُّرَاثِي، وَغلبةِ الألفَاظِ الغريبةِ غيرِ المألوفةِ، كتابةً وَتعبيرًا وَصياغةً .

وَاستخدمَ الشَّاعرُ الغرناطيُّ المادحُ لرسُولِ الله ﷺ الجملَ الفعليَّةَ الدَّالةَ عَلَى التَّوترِ والحركيَّةِ، والجملَ الاسميَّة الدَّالةَ عَلَى الإثباتِ وَالتَّأكيدِ، ونجدُ،كذلك، المزاوجةَ بين الأسَاليبِ الخبريَّةِ والإنشائيَّةِ قَصدَ خَلقِ الوَظيفةِ الشِّعريَّةِ، بمكوناتها، الإيحائيَّةِ والمجَازيَّةِ، وغالبًا ما استوجبَ تناولُ السِّيرة وَسردُ المعجزاتِ الأسلوبَ الخبريَّ، في حينٍ كانَ الأسلوبُ الإنشائيُّ وَاضِحاً في إظهارِ المشاعرِ وَالانطباعَاتِ الذَّاتيَّةِ.

وَعَالجَ الشُّعراءُ الصُّورَ الشِّعريَّةَ الحسِّيَّةَ القائمةَ عَلَى المُشَابهةِ، من خلالِ استخدامِ التَّشبيه وَالاستعارةِ، وَالاستعانةِ بِالصُّورةِ المجاورةِ ؛ عبرَ المزجِ بين المجازِ المُرْسلِ وَالكنايةِ في التَّصويرِ وَالبيان . واتَّخذتِ الصُّورُ البلاغيَّةُ ذاتُ النَّطاقِ الحسِّيِّ، طابعًا رَمزيًّا، خاصَّة في المقاطعِ الصُّوفيَّة ِالعرفَانيَّةِ .

خاتمة:

إنَّ الفيضَ العَاطفيَّ الَّذِي نلمسُهُ في مدَائحِ شعراءِ غرناطة، كانَ يعبِّرُ تعبيراً سهلاً عن لَواعجِ نفسِ الغرناطيِّ، مَلِكاً كَانَ، أو أميراً، أو وزيراً، أو شاعراً، أو إنساناً عاديّاً، فبعدُ المَزَارِ عن الأنْدَلُسيِّين، وشعورُهم بالقلقِ عَلَى أرضِهم، وَمُحَاولةُ تنصيرِ إنسانِهَا المسلمِ، وغير ذلك، هيَّجَ قَرَائحهم، حنيناً إلى الرُّوحِ النَّبويِّ؛ لأنَّ أهلَ الأنْدَلُسِ كَمَا يقول الدّكتور زكي مبارك (من أرقِّ النَّاسِ شوقاً إلى زيارةِ الرَّسُولِ ؛ لأنَّ بعدَ المَزَارِ غزا قلوبَهُم بِأقبَاسِ الحنينِ)[75].

أمَّا ما يلاحظ من غزلٍ في بعضٍ من القصائدِ النَّبويَّةِ أو المُوْلِدِيَّةِ، فإنَّه غزلٌ يتجاوزُ النِّطَاقَ الحسِّيَّ الملموسَ إلى ما هو مجازيٌّ وإيحائيٌّ ؛ أي ينتقلُ هذا الغزلُ من النِّطَاقِ البشريِّ إلى نطَاقِ الحضرةِ الرَّبانيَّةِ، فضلاً عن سفرِ شعرِ المَدِيح النَّبويِّ في ركابِ الدَّعوةِ المُحَمَّديَّةِ، وشعرِ الفتوحات الإسلاميَّة ؛ ليعانقَ تيارات الصُّوفيَّةِ.

بيد أنَّه ارتبطَ عند الشُّعراءِ في هذِهِ المرحلةِ بعيد المَوْلِدِ النَّبويّ، وَشعرِ المَلْحُونِ وَالطَّربِ الأنْدَلُسيِّ، ليصبحَ شعراً مقترنًا بالمعارضةِ، في غالب الأحيانِ.

كَمَا امتازَ شعرُ المَدِيح النَّبويِّ عند شعراءِ مملكةِ غرناطة بصدقِ المشاعرِ وَنبلِ الأحاسِيسِ، وَرقَّةِ الوجدَانِ، وَحبِّ الرَّسول ﷺ ، طمعًا في شفاعتِهِ وَوساطتِهِ يومَ الحِسَابِ.

وَيُمكنُ القولُ، بعد ذلك: إنَّ الشَّاعرَ الغرنَاطيَّ أشادَ بالرَّسولِ ﷺ باعتبارِهِ سيِّدَ الكونِ وَالمخلُوقَاتِ، وإنَّه أفضلُ البَشرِ، خُلقَةً وخُلُقًا، لذلك يستحقُّ كلَّ تعظيمٍ وَتشريفٍ، وَهو أحقُّ بالتَّمثُّلِ وَاحتذاءِ منهجه في الحياةِ، كَمَا إنَّ عشقَ الرَّسولِ ﷺ في القصيدةِ الغرنَاطيةِ يتَّخذُ أبعادًا روحَانيَّة وجدَانيَّة وَصوفيَّة .

وما حبُّ الرَّسُولِ في كلِّ القصَائدِ المدحيَّةِ إلاَّ مسلكٌ للتَّعبيرِ عن حبِّ الأمكنةِ المقدَّسةِ، وَالشَّوقِ العَارمِ إلى زيارةِ قبرِ الرَّسولِ ﷺ، وَالوقوفِ عَلَى جبلِ عَرَفات، وَالانتشاءِ بكلِّ الأفضية الَّتِي زَارَهَا الرَّسولُ ﷺ أثناءَ مَوَاسِمِ العمّرةِ والحجِّ والطَّواف والسَّعي....

([75]) **د. زكي مبارك: التَّصوُّف الإسلامي 281/2 .**

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

* أحمد بن سليمان أبو الحسين، ابن فركون: **ديوانه**، تحقيق د.محمد بن شريفه(مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط1، الرباط 1987م)

* أحمد بن القاضي أبو العباس: **جذوة الاقتباس** (الرباط، مطبعة دار المنصور، 1973م)

* أحمد بن علي، ابن خاتمة الأنصاري: **ديوانه**، تحقيق د. محمد رضوان الدَّية (وزارة الثَّقافة، دمشق 1978م).

* إسماعيل بن يوسف، ابن الأحمر: **نثير الجمان في شعر من نظمني وإيَّاه الزَّمان** –كتاب أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن– تحقيق د. محمد رضوان الداية(مؤسسة الرسالة بيروت،ط1، 1976م).

– **نثير فرائد الجمان في نظم شعراء الزمان**، تحقيق د.محمَّد رضوان الدَّاية (دارالثقافة، بيروت 1967م).

* تقي الدِّين الحموي: **خزانة الأدب وغاية الأرب**، تحقيق كوكب دياب(بيروت، دار صادر، ط2، 2002م)..

* خير الدين الزِّركلي: **الأعلام** (دار العلم للملايين، بيروت، 1995) 126.

* زكي مبارك: **التَّصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق** (مطبعة الرسالة، القاهرة 1983م).

* شهاب الدين أحمد بن محمَّد المَقَّري: – **أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري (صندوق إحياء التراث، الرباط، 1399هـ).

–**نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د.إحسان عباس (دار صادر، بيروت 2004 م).

* عبد الرحمن، ابن خلدون: **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، أو"تاريخ ابن خلدون"(مطبعةبولاق،القاهرة،1284هـ).

*عبد الكريم القيسي: **ديوانه**، تحقيق جمعة الشيخة ومحمَّد الهادي الطرابلسي(بيت الحكمة، ، تونس1988م)

* علي بن محمد، ابن الجيَّاب: **ديوانه**، صورة خاصة من مخطوط غير محقق في (دار الكتب المصرية،تحت رقم 2424).

* لسان الدين، محمد بن عبد الله، ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة** ، تحقيق: محمَّد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي،ط2،القاهرة) .

– **ديوانه**، تحقيق د.محمَّد مفتاح(دارالثقافة، بيروت، عام 1989م).

– **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثَّامنة** ، تحقيق : د. إحسان عباس (دار الثَّقافة، بيروت،1963م)

– **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ج 3**، تحقيق فاغية السَّعدية، (مطبعة النَّجاح الجديدة، ط 2، الدَّار البيضاء، 1982م).

* مُحَمَّد بن جرير الطَّبري: **تاريخ الطَّبري–تاريخ الرُّسل والملوك** – تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة، دار المعارف، 1960م).

*محمد بن شريفة د.: **البسطي أخر شعراء الأندلس**، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1985م)

* محمَّد عبد المنعم الحميرى ، **الرَّوض المعطار في خبر الأقطار** ، عني بنشره وتصحيحه وتعليق حواشيه ليفى برفنسال (مطبعة لجنة التأليف والتَّرجمة والنَّشر، القاهرة 1937م).

* محمد بن يوسف، ابن زُمرك: **ديوانه** تحقيق د. محمَّد توفيق النيفر (دار المغرب الإسلامي، ط1، المغرب 1997م).

*محي الدِّين بن عربي: **ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق**(المطبعة الأنسية،بيروت 1312هـ)